سر آزاد

نصیر حسین

بوقار بیت الادب

نوع العمل : رواية

الكاتب : نصير حسين

تدقيق : ولاء مصطفى

تصميم الغلاف : شروق سويلم

تصميم داخلي : منى وجيه

تعبئة وتنسيق : منى وجيه

فريق عمل بوقار " بيت الأدب " للنشر الإلكتروني

https://www.facebook.com/DarBovaar

الإهداء

يا مَن امتهنتَ المكر والغش والخداع أهديك هذهِ الرواية.

يا مَن جذبتك القشور وأبهرتك المظاهر أهديك هذهِ الرواية.

*** ***

بوقار
بيت الأدب

المقدمة

إنها تَحمل في طياتها الكثير، والكثير من الأحداث التي لم تصاغ وتكتب هباء أو لمجرد الجذب والإثارة، بل هي تحمل في أعماقها قيمًا وعبرًا ودروسًا.

اعتمدتُ في هذهِ الرواية على شيء من أساطير بلدي العراق العريق، ومزجتها بخيال خصب مع أسلوب سرد لطيف خفيف.

ستنبهر عزيزي القارئ الكريم، وستزدحم داخل رأسك الكثير من الأسئلة ويملئوك الغموض تلو الغموض، لكن لا تقلق ستكتشف اللغز في النهاية.أعدكم بأحداث مبهرة ونهاية مميزة.تقبلوا حبي العميق:

أخوكم المؤلف

بوقار بيت الأدب

الفصل الأول

سر من رأى

بوقار
بيت الأدب

- سأذهب الآن؛ كوني حذرة، لا تفتحي الباب لأيّ طارق غريب.

- رافقتك السلامة؛ كن حذرًا، ولا تتأخر عزيزي.

- أتمنى أن يكون نهارًا هادئ دون إزعاج، وفيه رزق طيب وفير.

في الطريق.

- إلى السوق هيا يا قدمي، أسرعي نفتح دكاننا الصغير، ونعرض بضاعتنا أمام الزبائن حتى نبيع، ونبيع، ثم نشتري بالأرباح خبزًا، وجبن، والقليل من الدهن.

انتصف نهار ذلك اليوم الصيفي الحار.أمر غريب يحدث في البحيرة المالحة.اضطراب في المياه.

الأمواج تتحرك كأنها ترتجف خوفًا.

قرب الضفة الجنوبية بقعة صغيرة من المياه بدأت تهتز أكثر من غيرها، ثم قليل من الوقت، وبدأت تخرج الفقاقيع كأنها قدر ماء تحتها نار حامية، غليان، غليان بشكل جنوني.

الشمس تبدل لونها إلى الأحمر، وزادت حرارة الجو.

الناس في البلدة رغم انشغالهم إلا أن منظر الشمس راعهم، وطفت التساؤلات بين الجميع.

"ترى هل هو بداية عذاب سيسلط عليهم كما سلط على أمم قبلهم أم هي مجرد ظاهرة غريبة من ظواهر الطبيعة، أم يا ترى يكون خير في طياتها؟!"

دوى صوت مجلجل عند البحيرة أشبه بصرخة ألم ولادة.

الشمس عادت للونها الطبيعي.

في (ثرحبا)، البقعة الصغيرة التي تغلي أخذت تهدأ.

استقرت مياه البحيرة بالكامل، وآخر فقاعة خرجت كانت كبيرة جدًا تحمل داخلها شيء مهم.

طفت الفقاعة الغريبة الكبيرة التي حجمها ضعف بيضة النعامة، وأخذت تتحرك بهدوء ناحية الضفة الجنوبية دون إحداث أيّ صوت، بل كان الصمت يحوم حولها بطريقة مرعبة كأنها تسكت حتى أنفاس الهواء.

عاد كل شيء إلى طبيعته، وانقضى جل النهار.

في السوق.

- الآن عليّ العودة إلى زوجتي الحبيبة، فاليوم الرزق وفير، وبدل الخبز اشتريت الفطير، واستبدلت الجبن باللحم، والدهن بالزبد.

سلوك الطريق المعتاد.

عند البحيرة حمائم بيض تحلق فوق الضفة الجنوبية، ثم بدأت تنخفض حينما رأت شيئا جذبها.

إحدى الحمائم تحط على الأرض بعد أن أسرت بسحر عينين زرق، وأخذت تتقدم.

صوت رفرفت أجنحة، وريش يتطاير، وهروب لباقي الحمام، ثم صمت عاد يسيطر على الموقف.

- لم يبقَ أمامي الكثير سأصل قريبًا.

صوت طفل يضحك.

- ما هذا الصوت؟!

أصبت بخلل في السمع أم ماذا؟!

أرهف سمعه، وركز حواسه.

- نعم، صوت كطفل يضحك، والمصدر ذاك المكان بالقرب من المياه خلف الحشائش العالية والقصب.

القدمان تتسابقان، والصوت يزداد وضوحًا.

اليدان تزيحان الحشائش بقوة، والعينان تمشطان كلّ شبر بحثًا عن مصدر الصوت.

- يا للروعة!

ما هذا الذي أراه؟!

بالتأكيد أنا أحلم أو أصابتني الشمس الحمراء بلعنة..

هل يعقل ما أراه أمامي؟!

تركيز أكثر، ومسح للعرق من الوجه بالثوب.

- بل هذهِ حقيقة.. طفلة غاية في الجمال، والروعة، لا بل هي ملاك.

اليدان تمتدان إلى الجسد الجميل الصغير، والفم يبتسم بعد أن دق القلب، وخفق، وملء حب حتى أن الدموع فاضت، وسالت.

- ما كلّ هذا الجمال يا صغيرة؟!

وما هذا الريش المتناثر حولك؟!

وأيّ مجرم بالدماء لونك؟!

يا لروعتك، يا لجمالك!

تبًا للقلب المتحجر الذي تركك هنا.

قطعة القماش التي كان الرأس معصوبًا بها صارت للطفلة ستر من العري.

انطلق الرجل كالسهم إلى بيته، والفرح يغمره، والسرور يأسره.

ركل الباب بقوة، ودخل، وهو يصيح:

- تعالي يا امرأة، انظري ماذا وجدتُ عند ضفة البحيرة.

الزوجة جاءت مستنفرة.

- ما بك يا (إيّا)، ماذا جلبت لنا هذه المرة سمكة مجروحة؟!

ضحكت، وهي تتذكر الطائر الجريح الذي أتى به قبل أسبوع لعلاجه.

- تعالي أيتها "المهبولة" (كرنو)، إنها هبة الكريمة ثرحبا لنا بعد طول تضرع، وسؤال.

قبل الوصول دمدمت بكلمات.

- أتيت بمعزة أو خروف.

أي كريمة؟!

متى تترك اعتقادكَ بهذهِ الخزعبلات؟

أحسكَ جدتي، ولستَ زوجي.

وصلت زوجها، ولم تجد عنده شيئًا سوى ما أتى به من حاجيات من السوق.

- هذا ما وجدتَ، لحم، وفطائر، وزبد؟!

- هذهِ الأشياء بالشراء أتت.

أما ما وجدت، فهو أجمل، وأهم، بل هو المهم.

- إني أخاف من مصيبة جديدة، فبعدها جراح يدي من منقار صديقك الطائر لم تبرأ، ولا زلت أندب الحظ على الأواني الخزفية التي حطمت، وعلى الستائر التي مزقت.

- هذهِ المرة الأمر مختلف.

اليد أمسكت اليد، وسحبتها إلى الغرفة الصغيرة التي أعدت قبل أعوام لاستقبال مولود لهم، لكن القدر أبى منحهم أمنيتهم.

- هيا أسرعي.

- إلى أين أرجوك لا تقلب عليّ المواجع، فعيناي لا تستطيعان النظر إلى داخل الغرفة، ولا حتى تنظيفها، و لولا عنادكَ، وأنت من يعتني بها لحولتها لمخزن نجمع فيه التالف من الأغراض.

- كم تحبين الحزن، والكآبة يا امرأة.

ادخلي الفرح إلى قلبي مرة، وتفاءلي.

- مَن تتزوجكَ تعيش أبدَ الدهر في حالة من ذهول لكثرة المفاجآت الفاجعات.

إلى السرير يده امتدت، وسحبت الغطاء.

الزوجة مصدومة.

- يا للسماء! ما هذا الملاك؟!

هل أحلم؟!

من أين أتيت بها؟!

كيف وجدتها؟!

خر الجسد على الأرض، وانفجرت باكية من فرط الفرح.

- أششش.. الصغيرة نائمة.. أريدك أن تنظفينها من الدماء، ثم أخرجي الملابس التي كنا قد جلبناها منذ سنوات، وألبسيها، وإن ظهر لها أهل أعدناه لهم، وإن لم يظهر، فهي ابنتنا التي وهبت لنا بعد طول صبر.

العينان محمرتان تنظران إلى الفم المتكلم.

بوقار بيت الأدب

- بل هي ابنتنا، ولن يظهر لها أهل غيرنا، وستشيع في المدينة أنك رزقت ببنت بعد طول صبر.

- على رسلك أنا أيضًا قلبي يحدثني بما قلت، فلو كان أهلها يريدونها ما رموها بين أحضان الهلاك.

- إذًا لا تؤلم قلبي بالمثاليات يا إيّا، وهيا فكر معي باسم لها.

- مع أول لحظة رأيتها أصابني السرور، والفرح لذا أريد تسميتها " سرور" ..

ما رايك عزيزتي؟

- بل هي أجمل وأعذب وأريد تسميتها اسمًا أكثر تعبيرًا، وجمالًا..

ما رأيك ب (سر من رأى؟).

- ما هذا يا امرأة؟!

هذا ليس باسم، بل جملة كاملة.

- نعم، وهي تستحق سطورًا طويلة لها اسم لا مجرد جملة بسيطة كهذهِ.

لقد سَرت قلبي وملأت الزاوية المظلمة فيه..

أدخلت البهجة بدخولها، فلن أقبل بأقل من هذا الاسم لها.

- هو لكِ.. أنتِ أمها، والأحق بتسميتها.

الأيام تلو الأيام تمر، والشهور تلو الشهور تنقضي، والأعوام تطوي الأعوام.

مرت ثمانية عشرة عامًا.

صباح جميل، وشمس تداعب المياه، والأراضي، وطرقت أشعتها النوافذ.

كلّ صاحب عمل خرج مبكرًا، والعجائز يتجمعنَ هنا وهناك أمام أبواب بيوت بعضهنَّ يتبادلنَ الكلمات، والذكريات عن شباب ذهب لغير رجعة.

الشابات يصلنَ، ويجلنَ في المنازل بين طاهية، ومنظفة أو مهتمة بصغير إلا (سر من رأى)، التي ما زالت خادرة في فراشها رغم إيقاظها مرارًا من قبل أمها.

- اووووه.. سأنهض الآن، فقط لحظات، لحظات.

- يا ابنتي ظهري يؤلمني، وركبتاي ما عادتا تحملاني.

أرجوكِ انهضي ساعديني على الأقل في تنظيف البيت، هيا أسرعي.

- أفٍ، ثم أف..

متى أرتاح من هذا العناء..

دقائق نوم لا يمكن الحصول عليها في هذا المكان..

ألا يكفي أنه أشبه بخرابة مهجورة.

الأم بنبرة حزينة فيها شيء من حزم.

- لا تقول لمن ربتك "أفٍ" هذا ليس من الفطرة التي فطر عليها البشر.

هذهِ قلةُ أخلاق وجحود، ثم حالنا الذي لا يعجبك نعمة كبيرة علينا نشكر خالقنا عليها..

فقراء، وبيتنا متواضع، لكن قلوب صافية لا تحمل ضغينة لأحد، ولا تحقد على أحد أفضل من قصور، وبطون مملوءة باللحوم، وقلوب متحجرة، وأفواه محشو بين أسنانها دماء الأبرياء، وهتك

أعراض المساكين.. احمدي، وأشكري على ما أنت فيه، وهيا هلمي ساعديني.

- أُفٍ.. نهضنا، وقمنا، لكن أخبريني ما الفطور؟

- خير وبركة، فقط اغسلي وجهك، وتجدين كلّ شيء حاضرًا معدًا.

- خير، وبركة؟!

إذًا خبز، وجبن..

معدتي تؤلمني قبل أن أطعمه..

ألا يوجد يوم أصحى فيه أجد لحم..

أريد لحم.. اللحم شهي مفيد لذيذ.

- عجبتُ لحالك من إنسان..

أترغبين عن الجبن لترغبي بلحم؟!

مَن يأكل اللحم صباحًا؟!

هذا سم على الجسم.

- السلاطين، والملوك يا أمي تأكل اللحوم المشوية، والمقلية صباحًا.

- تبًا، وتعسًا.. لا جعل لنا نصيب في زادهم، ولا كتب لنا مجالستهم..

أيدي مغمسة بظلم الأبرياء أيديهم، وقلوب تحجرت باتباع الملذات، والشهوات قلوبهم..

لقد أتعبني جدالك أكثر من تعب السنين..

انهضي، ولا تكثري من كلامك.

لقمة بعد الأخرى، والأكل على عجالة، والأم كالعادة تقف مستغربة تنظر إلى طريقة أكل الفتاة.

- هذا ما يسبب الألم لمعدتك لمجرد ذكر اسمه!

أخاف يومًا تأكليني، وأبوك.

ضحكة.

- لا أنتما هرمان لا تناسبا شهيتي، ثم إني في طور النمو، وعليّ التغذي جيدًا، وإجبار نفسي على الطعام للحصول على الطاقة.

تهز الأم رأسها.

- رزقت ببنت، وكنتُ فرحة بها، لكن الآن متحيرة في أمرها.

نظرت الفتاة إلى أمها وفي عينيها حدة مختبئة خلف نظرات حزينة.

سرى شعور إلى قلب الأم أن البنت تعرف الحقيقة كاملة.

- حسنًا لا يهم، فالجدال معك عقيم كالعادة.

هيا أسرعي ساعديني.

نهضت، وقبلت أمها على جبينها، ثم انطلقت ناحية الباب مسرعة.

صاحت الأم يائسة.

- أيضًا ككل يوم؟

- لا أستطيع الحياة دون أن أشم رائحتها، وأعطر وجهي بمياهها.

- أيّ شم وأيّ عطر يا مجنونة، فرائحتها كلها زنخ، ستتلفين بشرتك بالمياة المالحة.

ممتعضة منزعجة.

- إنها أمي الثانية ثرحبا أرجوك لا تذكريها بسوء أمامي.

استهزاء مع هز رأس بيأس.

- عفوًا مولاتي السلطانة.

فتح الباب، وأشرق الجسد الفاتن، وهَلَ الوجه شبيه البدر.

عجائز مجتمعات على مقربة من بيت إيّا بدأنَ كالعادة بحديثهنَّ الصباحي، وكانت فقرة انتقاد الشابة سر من رأى.

العجائز...

الأولى...

- إيهٍ لو كنتُ أملك جسمك المفتول، وشعرك المسدول، ووجهك الذي يشع بياضًا لأغويتُ كلّ شباب المدينة، و لامتلكتُ ثروة.

الثانية...

- تبًا لكِ من عاهرة.. ما هذا الكلام يا فاجرة؟!

الثالثة...

- دعيها تخرج حسراتها، فالأيام لن تعود بالتمني.

ضحكات شمطاء كشعور الرؤوس.

الأولى...

- تلك الغانية ستجلب لأهلها كارثة أو سعادة لا متناهية.

الثالثة...

- كيف ذلك يا حكيمة زمانك؟

الثانية تقاطع...

- أنا أقول لك، ودعي هذهِ، فكلامها كله ماجن..

إن الفتاة جميلة جمال يفوق الوصف، فقد اجتمعت فيها كلّ المحاسن من جسم، ووجه، وعيون زرق كسماء صافية، وكله سيكون كالسكر الذي يجذب الذباب، والنمل، وسوف تخاض على شرف خصرها معارك عظيمة، وتحصل نازلات كبيرة، وهذهِ هي الكارثة، بل الكوارث، أما...

الأولى تقاطع...

- مع تكبرها، وعجرفتها سترجح كفة الكارثة: أما السعادة كلّ السعادة إذا وجدت رجلًا حكيمًا يتزوجها، ويهذب عقلها، ويشكم قلبها.

الثالثة...

- بدل هذا كله أخبريني أنتِ، وهي عن زوجات أبنائكنَ، هل حملنَ أم ما زلنَ كالبيت الخراب لا سكان يعمروه.

في المساء...

- مرحبًا عزيزتي، كيف حالك؟

داخل نفسه يقول: موشح كلّ يوم المحشو شكوى على وشك البدء.. عليّ رسم ابتسامة بلهاء، ثم أتناول طعامي، وأهرب إلى السرير، لكن قبل هذا كله أخبر سر من رأى بالمفاجأة.

بدأت الزوجة كعادتها تخبر زوجها عن أفعال الشابة، وتحثه على الحديث معها، وزجرها، والزوج كالعادة يعد، ويعد وعودًا تتطاير مع بخار الشاي المتصاعد من الإبريق.

- أين هي الآن؟ أريد تكليمها.

العجوز متفاجئة.

- أصدقًا تقول؟!

تحرك عقلك أخيرًا؟!

- أخبريني أين هي؟، ولا تكثري الكلام.

- في غرفتها أمام الشباك تتحدث مع السماء على ما أظن كعادتها.

صاح إيّا بصوت مسموع.

- يا سر من رأى، تعالي يا ابنتي، أسرعي لدي أمر هام.

تتحرك، وهي تدمدم.

- أنتَ أيضًا..

ماذا تريدون مني دعوني وشأني؟

أظنُ العجوز تمكنت هذهِ المرة من قلبك عليّ..

تعتقد أني لم أسمع ما قالته لك عني.

خروج كسول من الغرفة الصغيرة، ومحاولة رسم ابتسامة.

- نعم أبي.

تقبيل للجبين، ثم اليد بعدها، وجلوس بأدب مفتعل مدعى.

- كيف حالك أميرتي الصغيرة، أبوك المسكين مشتاق لحنانك، ولإمتاع ناظريه بجمالك.

- آسفة أبي، لكني أقدر أنك تعود مرهقًا متعبًا، وتريد الراحة والنوم، فأرضى على نفسي الحرمان من رؤيتك، وأخنق قلبي الخافق بالشوق إليك.

العجوزُ انزعجت من رائحة الكذب التي ملأت المكان، لكن الحوار بين الإثنين مستمر.

- حبيبتي تعبي يزول برؤيتك، ونشاطي يتجدد بضمك، فلا تحرميني منك يا قرة عين أبوك، وأمك.

- حاضر يا حنون.

نظرة إلى أمها، كأنها تغييضها بعد عناق أبيها.

- طيب دعيني أخبرك بخبر سيفرحك.

لهفة حقيقية.

- ما هو؟

- لقد تمكنت أخيرًا بعد توفير الأموال دام نصف عام من جمع مبلغ من المال لا بأس به وهو لك.

سكتَ مبتسمًا، فقاطعته العجوز.

- النقود تدخرها مع ما عندي دون أيّ اسراف، فلا نعلم ما تخبئ لنا الأيام، لدينا ابنة تحتاج لجهاز إذ ما حصل وطلبها أحد للزواج.

انزعاج في وجه الزوج، وإحمرار في عين البنت.

إيّا يتكلم.

- ما بكِ كرنو، هل أرسلتك الأقدار لي حتى تفسدي كلّ لحظة فرح أخطط لخوضها أم بخلك فاق قدرتك على الحياة نفسها؟!

الدراهم التي وفرتُ هي لشراء قماش، وحاجيات لسر من رأى..

ألا ترين ملابسها التي بلت؛ منذ ثلاثة أعوام لم نبتع لها شيئًا، هذا ظلم.

نظر تجاه الشابة التي ابتسمت مكشرة عن صفي اللؤلؤ المرصوص داخل الفم الصغير.

- اسمعي ما هو أهم.

حضن قوي للشيخ، وقبلة على الخد بحرارة.

- نعم، يا أجمل، وأروع أب في الوجود.

- على مهل لا أتحمل قوة شابة مثلك.

ستكسرين لي ضلعًا.

تعالت الضحكات من الإثنين، وبقيت كرنو مقطبة الحاجبين عاقدة يديها على صدرها.

إيّا يقول:

- سآخذكِ معي إلى السوق، وستختارين ما تريدين من أقمشة، ونقضي النهار سويًا في الدكان، واحذري ما سنشتري أيضًا غدًا؟

عناق وقبل ملأت وجه الشيخ.

إيّا يكمل.

- لحم بدل الجبن.

- أحبك، أحبك، أحبك.

العجوز كرنو تدمدم بصوت مسموع.

- سوف تندم على إفسادك هذهِ البنت.

ثم أخذت العجوز تردد كلمات وهي تبتعد عن الأب وابنته متوجهة إلى غرفتها.

(ولات حين مندم).

إيّا يحدث ابنته.

- أمكِ تذكرني بالمجانين الذين يجوبون الشوارع يجمعون الناس حولهم.. ينصحون وينذرون ويحذرون، ويخوفونهم من عاقبة أمرهم.

مستغربة تسأل.

- تقصد المجانين؟

- لا إنهم أشر خطرًا.. المجنون يمكن تجنبه أو تحاشيه، لكن أولئك يسحرون العقول بغريب الكلام.

- سحرة؟!

- بل أخطر.. إنهم حفنة الأغبياء من دعاة التوبة والإصلاح، المنذرين من عذاب في العالم الآخر لمن لم يصلح حاله.

ضحكة فيها فرح وغبطة، ثم حضن وقبل.

نهوض نشيط مع أول ساعة الصباح، ورفقة.

في السوق الفتاة تصول، وتجول عند البزاز، وهي تعاني من صعوبة في اختيار ما يناسبها.

- اللعنة كلّ شيء جميل.

بعد جولة طويلة أتعبت البائع تم الاختيار، وحسم الأمر.

الأب والبنت مستقران داخل الدكان، وقبل أن ينطلق لسان الشيخ مدعيًا بطولات لا وجود لها صرخ صارخ في السوق يستنفر الناس للحدث المهم.

الناس تتجمهر، وتصطف على جانبي الطريق وسط السوق.

موكب مهيب سيمر، والجميع متسمر ينتظر؛ هذا ما أعلن عنه للناس.

صوت هديب الخيل، بدأ يسمع تصاحبه أصوات قعقعة السلاح تصدح.

الوجوه تسمرت، والعيون فتحت على آخرها، ثم ظهر أول الموكب.

فارس على صهوة حصانه؛ فارس ضخم البنية يرتدي الخوذة الحديدية، ويربط الدرع الفولاذية على صدره، وحصانه الأسود

القوي يكاد لا يرى لكثير حديده. خلف الفارس خيالة مقنعين بالحديد مدججين بالسيوف والرماح والسلاسل؛ خلفهم مجموعة من المشاة الذين يحملون الرماح الطويلة.

الموكب المهيب يمر، وأصوات الهتاف علت، والهامات انحنت ما عدا هامة شابة نسيت نفسها لفرط إعجابها بالمنظر، وبقيت عيناها تتنقلان بين الفرسان حتى وقع نظر الفارس عليها.

توقف الحصان الأسود فجأة، فصمت صوت الهديب، وخرست القعقعة.

ترجل الفارس وتوجه ناحية وجهته، وصفوف المتجمهرين الذين صمتوا هم أيضًا تنشق له، والظهور تُعقف تبجيلًا له.

خطوات، ثم توقف أمام الهدف الذي طأطأ رأسه.

صوت كالرعد.

- ارفعي رأسك أيتها الحسناء.

الرأس يرفع ببطء، والخوف ملأ الجمهور، والعجوز الذي كاد يتبول على نفسه.

نظرة متفحصة من العين الوحيدة التي يملك تتفقد، وتمسح كلّ مكان في الوجه الجميل، والجسم الرقيق.

الصوت الراعد مرة أخرى.

- ما اسمك؟

انطلق الجواب بصوت هادئ واثق.

- سر من رأى ابنة إيّا.

اليدان ترفعان الخوذة، لينكشف الوجه الأسمر حازم الملامح، بعينه اليمنى المفقوعة، وذلك النحت على الخد الأيسر خط من قبل نصل حاذق فيما مضى من معارك خاضها، وشعر رأس ولحية أسود أجعد كثيف.

ابتسامة بشعة.

- لقد رأيتك قبل لكن أين؟

جرأة في الإجابة بعدما قرأت ما وقع في القلب، وفضحته العين.

- نعم، سيدي تشرفت برؤيتكم قبل.

- أين؟

انحنت، ثم تكلمت.

- أنا تلك الفتاة التي كادت خيل جنودكم دهسها قرب البحيرة.

ابتسامة مسلوبة الروح.

- تذكرتك، وماذا كنتِ تفعلين هناك في مثل ذلك الوقت؟!

ألديك حبيب كنتِ على موعد معه؟

الجرأة زادت بعد وصول الرسائل من العين التي تتفحص كلّ شيء في سر من رأى حتى الأنفاس بدأت بعدها.

- بل حبيبة يا سيدي.

- تبًا، كيف هذا؟!

أنثى تحب أنثى؟!

- حبيبتي هي ثرحبا يا سيدي.

ضحكات انطلقت.

- تحبين البحيرة مثلي، أين تسكني، وأين والدك؟

بوقار بيت الأدب

كاد يغشى على إيّا عند سماع السؤال عنه.

- أسكن على الهضبة قرب البحيرة سيدي، وأبي ها هو بجانبي.

تمنى إيّا في تلك اللحظة لو أنه لم يمر ذلك اليوم، ولم يجد الرضيعة.

- أين هو؟

الأب يرفع يده المرتعشة خوفًا، وبصوت مرتعد يجب.

- أنا هو يا سيدي (شامشي).

وضعت الكف على كتف العجوز.

- هذهِ ابنتكَ؟

- نعم، سيدي هي كذلك؟

العين تتفحص الشابة من جديد، واللسان يخاطب العجوز بنبرة هادئة.

- أريدها.

سر من رأى بجرأة كبيرة تقول:

- تريدني! وكيف تريدني يا سيدي؟!

قُطِبَ الحاجبان، وظهر الانزعاج على الوجه الحسن.

شامشي يبتسم، ثم يجيب.

- أريدك زوجة طبعًا.

انبعث الفرح في العينين، وغزى السرور الخدين، ثم انحناء مع ابتسامة من قبل الفتاة.

أشار قائد جيوش السلطنة شامشي لأحد أعوانه، فجاءه بكيس صغير فيه دنانير ذهبية أعطاها لإيّا، ثم مد يده للفتاة يدعوها لمد يدها له.

الأب المذهول المصدوم يمسك كيس الدنانير.

كيس طالما حلم بامتلاكه، لكنه لم يتصور أن ثمنه سيكون باهضًا لهذهِ الدرجة.

بدأ يكلم نفسه في داخله ويقول:

- أيعقل أن يكون ثمنكَ هو الابنة التي ربيتُ، التي انتظرتُ إزهارها، وحلمتُ باليوم الذي أسلمها بيدي إلى عريسها؟!

كنتُ أعد الأيام حتى أزوجها، وأفرح بأطفالها..

كنتُ أسمع صدى أصوات أولئك الأطفال وهم ينادون جدي..

أيعقل كلّ تلك الأحلام غدت سرابًا!

ابنة بيعت جبرًا بدنانير معدودة..

تبًا ما أحقرني من تاجر باع أعز بضاعة لديه ببخس الأثمان مجبرًا راغم الأنف.

إيّا يتجرع الصمت بطعم الحنظل، وهو مجبر على رسم ابتسامة فرح موؤدة، ثم يحني جذعه شكرًا لمن اغتصب منه جوهرته الثمينة.

سر من رأى تمد اليد، وتمسك بيد مَن زعم أنه سيكون زوجها.

بدأت خطواتها الأولى بأنفة وكبرياء، وعيناها تراقبان الناس في الخفاء.

نفس مبتهجة لانحناء القامات، وتذلل الهامات، وقد نسيت أمر العجوزين نهائيًا.

اعتلى القائد صهوة حصانه، ثم رفع الشابة ليجلسها أمامه، ويكمل مسيرته نحو قصره، ليوصل عروسه حيث تعيش زوجاته التسع، وابنائه الكثر، ثم ينطلق إلى السلطان الذي طلبه في أمر هام.

انفض المتجمهرون، وعاد الشيخ إلى دكانه، وهو يحتضن كيس النقود، وقد مُلِئ قلبه حزنًا، وألمًا.

بعض المعارف يدخلون الدكان، وهم في حيرة أيهنؤون أم يواسون؟!

سر من رأى مسرورة لما آلت إليه الأمور.

مبتسمة الثغر، وبين اللحظة والأخرى تدير رأسها لتريَّ شامشي ابتسامتها.

ضخم الجثة بدأ يحس بشيءٍ غريب يتسرب إلى قلبه تجاه فتاته الجديدة؛ شيء لم يحسه مع سابقاتها.

أمر يختلف عن شغف الشهوة، وحب التهام الأجساد الأنثوية.

الوصول إلى القصر لم يأخذ وقتًا طويلًا.

الأبواب تفتح، كأن القصر يفتح ذراعيه ليحتضن سيدته العاشرة.

الشابة تنظر إلى المصطفات المستقبلات وأبنائهنَّ وعلى وجهها ابتسامة ثقة أنها بحسنها، ومكرها ستسود، وتملك قلب سيد المكان.

أما النساء، فقد استقبلنَ ضرتهنَّ بوجوه عابسة مزمجرة.

العروس جُهزت، وفي الغرفة أُجلست تنتظر عريسها.

لم تكن العروس مثل مَن هنَّ في موقفها، بل كلّ ما كان يشغلها التخطيط، والترتيب لحياتها القادمة، وما فكرت بحال أمها أو أبيها، كأنها كانت تنتظر هذهِ اللحظة لمحوهما من ذاكرتها.

الحزنُ حل بقوة في بيت العجوزين، وكرنو صدمتها كبيرة جدًا لم تنطق بحرف، كلّ ما فعلته هو الدخول لغرفة البنت وإغلاق الباب خلفها.

أما الرجل، فمتسمر في غرفة المعيشة مسلوب الاحساس من كلّ شيء حوله.

الباب يفتح بقوة، وشراسة.

وحش كاسر هجم على فريسة ضعيفة.

هذا ما كان يحب ممارسته شامشي مع كلّ امرأة يتزوج.

ابتسامة رقيقة ماكرة، فاجأت المهاجم الذي إعتاد على الوجوه المرتعبة في مثل هكذا موقف.

- ألم تخافي مني؟!

صوت فيه رنين دلع، وشوق، وولع.

- أيخاف القلب من نبضه؟

أتنفر الروح من وعائها؟

- ما هذهِ الكلمات؟ إنها غريبة على مسامعي.

نظرة بدلال، وبسط لليد على السرير تدعوه للجلوس بقربها.

- مذ أول يوم رأيتك فيه سيدي أسرتَ قلبي، وهامت روحي بك، وتمنيتك، فطلبتُ من ثرحبا الكريمة أن تجعلني خادمة تحت قدميك.

سم زعاف أصاب القلب شبه المتحجر، فبدأت قلعة الوحشية والقسوة تنهار بهدوء.

في الصباح العدة تعد والجنود تستعد.

بوقار بيت الأدب Bouvar

عربة فخمة تجهز والغرض منها مرافقة العروس عريسها في مهمته التي كلف بها من قبل السلطان أمس.

خرج شامشي بكامل لباسه العسكري، وهو على غير عادته، فقد كان يبتسم، ويحمل خوذته بيساره، ويتأبط عروسه الفاتنة بيمينه.

الزوجة التاسعة تكلم الثامنة.

- اللعنة لقد ازداد حسنها بهاء، واشتد جمالها، وفار دلالها!! ما الذي حدث؟! لماذا لم يسود وجهها خوفًا، وتدمى مقلتها ضربًا كما حصل لنا في تلك الليلة المشؤومة؟!!

الثامنة لا جواب عندها سوى تحريك شفتيها تعبيرًا عن العجز عن الإجابة.

أشار سيد القصر إلى جارية وصلت بالأمس، فجاءت الأخيرة مهرولة.

بوقار بيت الأدب Bouvar

قال:

- عزيزتي سر من رأى أقدم لك هذهِ الهدية العزيزة على قلبي..

إنها هدية السلطان أهبها لك جارية تقوم على خدمتك.

كشر بوجه الجارية، وقال لها:

- قبلي يد سيدتك.

ركعت، وقبلت، ثم عرفت عن اسمها.

- أنا (إنليل)، في خدمتك سيدتي.

نظرت إليها بكبرياء وشموخ، ثم توجهت بوجهها باسمة ناحية زوجها، كأنها تدربت كثيرًا على مثل هكذا موقف.

- قبلتُ هديتك يا قرة العين، ومهجة الروح.

أيام سبعة في الطريق حتى الوصول إلى الهدف المنشود؛ الحصن المستعصي الذي احتله المتمردون وأيدهم أهله.

في كلّ ليلة من السبع تنصب خيمة القائد ليجتمع بعروسه التي أخذت تتملك قلبه بعد أن عاد ينبض.

أمسى شامشي محبًا لها شغوفًا مستكينًا لها، والوصب ملأ قلبه في أيام معدودة قصار حتى عشقها، وهام بها. الجنود جميعهم مستغربين لحال قائدهم المغوار مع تلك المرأة غريبة الأطوار التي تعاملت مع الجميع كأنها هي القائد ومالك الأمر والنهي.

إنليل كذلك علا شأنها، فصارت وصيفة السيدة سر من رأى.

الجيش يضرب الحصار حول الحصن المنيع، ويبدأ كالمعتاد التراشق بالأسهم، والمنجنيق.

الأيام تمر، والملل تسرب إلى المهاجمين، والغيض تملك قائد الجيش.

شامشي يحدث زوجته.

- إني في عجب لأمري معك، فعندك فقط تهدأ الفرائص، وتركن الروح!

- الحب يا حبيبي يكسر أقفال الغرف البعيدة داخلنا ليخرج ما قد أخفيناه خوفًا من أن يكون نقطة سوداء أو مصدر ضعف..

أنتَ أخفيتَ ذلك لأنكَ كنتَ تعتقد أنه قد يظهركَ ضعيفًا، لكن الحب تمكن منك في النهاية.

تنهد، ولهفة من قبل الزوج العاشق.

- كم أتمنى إنهاء هذهِ المهمة المتعسرة، ثم العودة إلى المدينة حتى أنعم معك بأيام هانئة..

تعرفين سأطلب من السلطان إعفائي من قيادة الجيوش، ثم آخذك، ونسافر إلى مكان بعيد.

ادعت البهجة بما تسمع، ثم قالت:

- ما الذي يمنعك من فتح الحصن ودخوله؟

- المقاومة الشرسة، وقوة الجدران.

ابتسامة عريضة.

- بل الخوف هو الذي جعل الأسوار شاهقة منيعة.

- كيف ذلك أفصحي عما ترومين قوله؟

- الخوف في داخل الحصن منعك، وجنودك يا سيدي القائد..

الأوباش المنتفضين، ومعهم الأهالي المغلوبين على أمرهم يستميتون دفاعًا ليس عن أحجار، بل عن أنفسهم، فهم مؤمنون أنهم ميتون لا محالة.

الزوج ينصت باهتمام، ويده تربت على لحيته بهدوء، وعينه تراقب الفم بشغف.

سر من رأى تواصل الكلام.

- إن وجدوا منك يا حبيبي لينًا وأمانًا على حياة المدنيين سينقلبون على مَن كانوا إليهم راكنين، ثم تحدث فتنة، وبلبلة، وينهار الوحش الذي التهم معنويات الجنود وبعض أرواحهم، وتدخل فاتحًا دون إهدار قطرة دم من دماء الجند، وبعد التمكن تقبض على الأوباش وتحش الرقاب وتنكل، وتمثل بهم أبشع التنكيل، ثم تتفرغ للمدنيين

لتضربهم بيد من حديد، لكن ليس بالعلن، بل بالدهاء والفتن، وتثير عامتهم على عقلائهم، وبذلك تأمن شرهم في المستقبل، وتعود وبيمينك النصر والولاء التام لسلطاننا العظيم.

انقض شامشي على زوجته بين حاض ومقبل، ومادح، ومبجل.

اجتماع لجميع القواد في الجيش، والكاهن مع شامشي وعرض للخطة الجديدة.

الجميع يثني على سيده وروعة فكرته، والقائد في لحظة نشوة عَرَفَ عن صاحب الخطة الحقيقي.

اتفق الجميع على أن تكون طريقة تطبيق أول خطوات الخطة هي من خلال خط تأمين للمدنيين على أرواحهم، وأموالهم على قطع من جلود، وورق وربطها بأحجار أو سهام، ثم رميها داخل الحصن.

بوقار بيت الأدب Bouvar

نُفذت الخطة، وفي اليوم التالي ظهرًا قطفت أول ثمارها.

الجيش المنتصر يعود ليستقبل بالورود.

إيّا يجلس في بيته حزينًا على فراق ابنته، وزجته التي فارقت الحياة حزنًا على من ربت.

أُرسلت الزوجة، ووصيفتها إلى قصر القائد، وهو انطلق مسرعًا إلى مولاه يبلغه عن الانتصارات، وبرفقته الكاهن المبعوث الشخصي من قبل السلطان.

السلطان (نيراري)، قصير القامة عظيم الكرش كبير الرأس كعادته يجلس شبه نائم على كرسي الحكم المصنوع من الذهب، والمرصع بالياقوت الأحمر.

عند دخول القائد الذي سبقه خبر الانتصار تفتحت العينان الناعستان.

- أهلًا، وسهلًا بك تفضل على يميني أرجوك.

الكاهن ينسل بحركة تشبه حركة تسلل الأفعى إلى فرخ دجاج، ويبدأ يهمس للسلطان في أذنه.

الدقائق تمض، والقائد يراقب الهامس، والمهموس له تارة، ويدعي تفقده لسقف وجدران المكان تارة أخرى.

انصرف الكاهن بعد إنهائه لمهمته.

- السلطان ينظر إلى القائد وعيناه فيهما شيء غريب لا يفسر.

- احكِ يا سيد شامشي، كيف تمكنتَ من قهر ذلك الحصن العنيد، وسحق الأوباش داخله؟

السؤال يعرف سائله جوابه مسبقًا، لكنه اختبار لهُ غاية أخرى.

قال القائد بعد الابتسامة:

- مولاي المبجل إن رضاكم عني جعل السماء راضية، فوهبت لي زوجة مخلصة طيبة ذكية أعانتني على مهمتي.

لسان حاله يقول: (لن أخوض في التفاصيل، فقد فعلها ذلك الحقير).

يكمل القائد كلامه.

- فاقترحت أمرًا راق لي، وبعد التباحث مع أمراء الجيش تمكنا من الانتصار، وانجاز المهمة.

السلطان يبتسم.

- أنتَ قائد عظيم، وعلى السماء مساعدتك لذا آمر بحضور زوجتكَ إلى هنا الآن لتحظى بتكريمنا، ولنحتفي بها جميعنا.

النفس انتابها شيء من الانزعاج.

نهض القائد، وانحنى، ثم قال لسيده.

- اسمح لي الانطلاق من فوري لجلبها حتى تنال شرف المثول بين يديكم، والسجود تكريمًا لكم.

نيراري يعترض.

- لا، سأرسل العربة السلطانية لجلبها، لا تقلق.

القائد يواصل شرح ما حدث لسلطانه بتفصيل ودقة كما طلب، والمستمع منبهر بالخطة.

وقت ليس بالطويل، ولا القصير، ثم أعلن عن وصول المرسل في طلبها.

عدل السلطان من جلسته، وركز بصره ناحية أول القاعة.

امرأة ترتدي أبهى الحلل تدخل، وقد غطت رأسها، وأخفت وجهها، ثم تقدمت، وهي تمشي على استحياء بخطوات هادئة رقيقة.

عندما وصلت على مقربة من السلطان هبطت إلى الأرض دون أن تحني ظهرها، ثم عادت للانتصاب مجددًا.

لم تتكلم، ولم تفعل أيّ شيء بقيت متسمرة في مكانها.

السلطان، وفي نفسه انزعاج قال:

- أهلًا وسهلًا بزوجة قائدنا المغوار، واضعة خطة الانتصار.

بوقار بيت الأدب

انطلق الصوت الرقيق الناعم الجميل ليتسلل إلى شغاف قلب نيراري. قالت:

- الشكر لكم مولانا إذ شرفتموني برؤيتكم.

الرغبة العارمة تملكت صاحب العمامة الكبيرة في رؤية الوجه، فهل هو جميل كالصوت أم كحال ما جرت العادة عليه صوت جميل مصطنع، ووجه قبيح مرعب.

الزوج الذي تمنى في لحظتها حمل امرأته على كتفه، والجري بها بعيدًا.

السلطان قال:

- ألا تكشفين عن وجهك ليتسنى لنا حسن شكرك على صنعك، وتقدير جزيل مدحك على فعلك؟

وجه الزوج تغير، وبان الانزعاج عليه، لكنه حاول رسم العزم والحزم أمام مولاه مبينا له عدم الاكتراث.

سر من رأى بثقة رفعت يديها إلى غطاء وجهها، ثم رفعته ببطء، فأشرقت بحسنها الوضاء على السلطان، وأنارت بجمالها نفس نيراري الذي عزف عن الزواج سنون طوال مكتفيًا بجارية لكلّ ليلة.

الانجذاب مع الدهشة ظهرا على وجه السلطان، فنهض من مكانه مسرعًا، وهبط إلى أرض القاعة متوجهًا يسبقه كرشه، وتزعجه عمامته، إلى الحسناء، ثم وقف أمامها منبهرًا يتأمل تقاسيم وجهها.

شامشي بدأ يغلي، ويعتصر الكف بالكف بصمت، وهو يقول داخل نفسه:

- ابتعد عنها أيها القزم الحقير..

ابتعد وإلا أوسعتك ضربًا الآن..

ابتعد وإلا نسيتُ أنك السلطان.

نيراري يمد يده، فيمسك كف سر من رأى، ثم يجلسها بقربه.

نظرت إليه وابتسمت، فأصابته بآخر سهم أرادت إطلاقه.

السلطان يوجه بصره ناحية الذي على وجهه الانزعاج بائن، ويقول:

- أنتَ قائد عظيم، ورجل محظوظ، ولديك من الزوجات تسع على ما أظن، وأولاد كثر أيضًا.

شامشي يقاطع، وفي صوته شيء من الرعد.

- بل عشرة يا مولاي.. لدي عشر زوجات.

نظرة فيها الكثير من الخبث، ثم إشارة للحاجب بطرف العين، فعرف المراد، ونادى الحراس ليصطفوا في القاعة من الجانبين.

قال السلطان:

- أظنك ستكتفي بتسع، أما العاشرة، فستكون لي زوجة.

سر من رأى لا يلاحظ على وجهها أيّ فرح أو انزعاج، فقط الصمت كان رفيقها.

انفجر القائد ضاحكًا بعد أن انتصب واقفًا.

- إن زوجتي هذهِ لن تستبدل بطل مثلي بأيّ رجل آخر.

السلطان احمر وجهه الأحمر، وانزعج.

- ويحك كيف تكلم مولاك بهذا القبح!

أنا مالك أمرك لستُ رجل آخر..

لو لم تكن ما تكن لفصلتُ رأسك عن جسمك.

ثقة عالية.

- سل صاحبة الشأن، وهي تخبرك.

نيراري لم يتأخر في طرح السؤال، فجاءه الجواب بأسرع مما طرح.

- أنا طوع أمر مولاي العظيم.

امتلأ المكان بضحكات عالية.

الحبيب المصدوم تلجمه المفاجأة، ويسري الحزن في أعماقه.

تحرك المهزوم مطأطأ الرأس حزينًا باتجاه المخرج دون كلمة، فاعترضه الحراس، وحاولوا منعه من الخروج إلا أن السلطان أشار لهم بتركه.

السلطان يكلم عروسه، ويقول:

- ستبتهج السلطنة لأيام طوال بزواج سلطانها.

شامشي يسير بلا عقل، ولا وجهة، وقبل أن يبدأ حوار نفسه، ناداه صوت من إحدى زوايا الشوارع.

امرأة اقتربت، ثم كشفت له عن وجهها.

- إنليل! ماذا تفعلين هنا؟!

- جئت أواسيك، وأدلك على الطريق الصحيح للانتقام من الجميع.

- كيف عرفتي؟!

- المكان غير ملائم هنا، هيا بنا إلى مكان آمن.

بعد تلك الليلة لم يسمع أحد أيّ أخبار عن قائد الجيوش المغوار، وكأنه دخان مدفئة تطاير في السماء.

بوقار بيت الأدب Bouvar

إنليل تلتحق بقصر السلطان لخدمة مولاتها السلطانة، وتصبح كبيرة الوصيفات، ومسؤولة الخادمات، وأقرب النساء لسيدتها، ومحل ثقتها.

مضت الأيام سريعًا، وشهر العسل انتهى أسرع مما ابتدأ، وقد قضي بإغداق الشابة الكثير من المشاعر على زوجها الجديد، وفعلت له كل ما يريد من مجون، وقلة أدب.

في أول الليالي بعد شهر العسل، وبعدما نام الخدم، والسادة في القصر خرجت إنليل في جنح الليل، والقصد الإسطبل السلطاني حيث الخيل، والإبل، وكلاب الحراسة.

بوقار بيت الأدب Bouvar

دخلت خلسة، وبعد وصولها عند الكلب الأسود الهرم أخرجت من تحت ردائها وعاء صغير، وملأته من بولها، ثم قدمته للكلب، وهي تدمدم بكلمات غريبة غير مفهومة.

الحيوان انكفأ على الوعاء، ولما فيه لعق حتى أتى على آخر قطرة، ثم بدأ يرتجف، وصارت عيناه بيضاء، وجلس على مؤخرته، وعقد يديه على صدره، ثم تكلم بلسان فصيح.

الكلب.

- أهلًا بخادمتنا الوفية.

وصلت هديتك، وتم الأمر.

- أنا بخدمتك سيدي.

- لم يبقَ أمامك سوى القليل، وتتحرر روحك.

- طوع أمرك سيدي العظيم.

- أطلعيني على أخبار تلك الحقيرة.

- تتقلب في المكر، والادعاء مع ذلك الغبي صاحب الكرش الكبير.

ضحك الكلب، ثم قال:

- خذي هذا.

أخرج الحيوان من فمه قطعة صغيرة.. شيء أسود يشبه الحجر.

التقطته إنليل.

الكلب يكمل كلامه.

- هذهِ تذوبيها في شراب الغبي عند الصباح، وبعدها يسري الشك إلى قلبه تجاه تلك القذرة.

بعد ذلك يأتي دورك، وأنت تعرفين ما ستفعلين.

بوقار بيت الأدب

- لا تقلق سيدي كلّ شيء سيسير على ما يرام.

صباح اليوم التالي، وبعد أن تناول السلطان فطوره الشهي، وشرب شرابه المعتاد حتى آخر قطره، قالت له زوجته:

- أريد إخبارك بأمر سيفرحك.

- ما هو؟

بتصنع، ودلع، ورسم حمرة خجل.

- أنا حامل.

- حقًا؟! منذ متى عرفتِ بذلك؟!

- منذ أسبوع شككتُ، واليوم تأكدتُ.

صمت السلطان لحظات، وأخذ الشك يعتصر قلبه بقوة.

قال بعد أن تغيرت نظرات عيناه، واختلف لون وجهه.

بوقار بيت الأدب

- أصدقيني القول، ولا تخفِ عني الحقيقة.

دون تردد.

- بكلّ تأكيد مولاي.

- الذي في أحشائك مني أم منه؟

اصفر الوجه، وارتجفت الشفتان، وتخبطت العينان تبحثان عن مفر من نظرات نيراري المتقدة شك.

تمالكت نفسها، وقالت:

- أتشك بي يا مولاي؟!

أتعتقد أني أكذب عليك؟!

خرج السلطان من مخدعه بخطى مسرعة بعدما سمع جميع مَن في القصر صراخه على زوجته.

السلطان في مجلسه.

- يا عالمنا الجليل أريد سؤالك في مسألة محيرة، ما قولك بامرأة طلقت من الأول، وتزوجت بالثاني دون فاصل زمني؟، فأخبرت زوجها الجديد بأنها حامل..

مَن أب الجنين برأيك؟

تبسم العالم الجليل، ثم قال:

- قبل ردح من الزمن كانت هناك أمة لم يبقَ من تقاليدها شيء يذكر.

كانوا يعنون بهذهِ المسائل كثيرًا، وكانوا لا يزوجون مفارقة زوج لبعل آخر إلا بعد استبراء رحمها للحفاظ على نقاء الأصل..

بوقار بيت الأدب Bouvar

أما نحنُ نزوج بعد الفراق مباشرة، فبتلينا بالأمراض، واختلطت عندنا الأنساب، وما زاد البلاء بلاء زواج التوقيت باليوم والفراق باليوم.

أما الإجابة عن سؤالك، فعند صاحبة الشأن.

الباب يفتح بعنف، ويدخل نيراري وفي عينيه الشر متقد.

بجفاء، وخشونة قال:

- أخبريني دون كذب، ولا مماطلة؛ مَن أب الذي في أحشائك؟

الشابة ترتمي تحت أقدامه باكية متوسلة، وهي تقول:

- أقسم لك بكلّ ما تؤمن به هو منك أنتَ.

بكاء، وتكرار للقسم، لكن كلّ هذا لا يفيد، فالشك تمكن منه حتى أصبح يقينًا لا يقبل النقاش مطلقًا.

مد يده إلى الجسد الملقى تحته، ورفعه، ثم قال:

- أنا أحبك فوق ما تتخيلين لذا سأسامحك على هذهِ الغلطة الفظيعة، وأمهلك حتى الغد لتتخلصي منه، بعدها نبدأ من جديد.

نظرت إليه بعد جفاف الدموع في عينيها، ثم قالت:

- هذا طلب أم أمر يا مولاي؟

- بل أمر لا نقاش فيه، إن أردتِ إثباتَ حبك لي تخلصي منه.

انحنت له.

- سمعًا، وطاعة، لن تسمع له ذكر.

ابتسم السلطان ابتسامة باهتة، ثم انصرف عائدًا إلى مجلسه.

سر من رأى لم يخطر في بالها أحد سوى إنليل، فاستدعتها على عجل، وعند دخولها ارتمت في أحضانها باكية.

بوقار بيت الأدب

- أنقذي جنيني.

الوصيفة تمسح على رأس السلطانة.

- لا عليك، خلاصك والذي في بطنك عندي، لكن عليك تنفيذ كلّ ما أقوله لك بالتفصيل.

- طوع أمرك في ما تقوليه، وتأمرين به.

الوصيفة تستفسر من سيدتها.

- أنت تملكين عقل راجح. أين غابت رجاحته عن إيجاد حل لما أنت فيه؟!

بكت الشابة بحرقة، ثم قالت:

- منذ لحظة تأكدي من الذي استقر في أحشائي اضطربت روحي، وتوقف عقلي عن التخطيط، والتدبير، فأصبحت أخاف عليه من كلّ شيء، وأريد الفرار به إلى بر الأمان.

هزت رأسها، ثم أطلقت ضحكة ملؤها الخبث، والدهاء، وقالت:

- عجيب أمرك يا وليدة ثرحبا!

صدمة.

- كيف عرفتي؟!

ضحكة أخرى.

- أعرفك مذ يوم عرفتك، ورأيتُ ماضيك بين عينيك.

الأهم الآن هو تخليصك من هذا المكان.

فرس حمراء قوية تنطلق مسرعة، والوجهة معروفة.

إنليل تجلس في غرفة سيدتها، وهي تراقب الفرس من خلال الشرفة الكبيرة، وقد رسمت على وجهها ابتسامة عريضة.

سر من رأى تكلم نفسها، وهي على صهوة الحمراء.

- ماذا فعلتُ؟!

أيعقل هذا؟!

لما لم أتخلص منه؟!

صوت همس بأذنها.

- أنتِ فعلتِ الصواب يا ابنتي، وكان واجب عليك تحييد عقلك، وإعمال فطرتك.

تعود الشابة للحديث مع نفسها.

- عليّ حث السير وجده حتى أصل الجبل الأسود في أقصر وقت، وأدخل إلى كهف الساحر الذي سيعطيني الحل.

حقًا أنا غبية.

أندم على مرافقة إنسي غبي، وأنسى واجبي تجاه جنسي وأنا آخرهم؟!

هذا ما وجدت لأجله.

صرخت بالدابة.

- هيا أريني كلّ ما عندك.

ساعة مضت على مغادرة سر من رأى القصر.

إنليل تقوم بلطم وجهها بقوة، وعنف، ثم ضربت رأسها حتى سال دمها، بعدها خرجت من غرفة سيدتها وهي تصرخ طالبة النجدة متوجهة نحو مجلس السلطان.

- أدركني يا مولاي، مولاتي لا أعرف ما حل بها ضربتني، ثم اختفت.

صرخ نيراري بأعلى صواته.

- خائنة كاذبة.

إنليل وهي تدعي الإعياء، والمرض.

- أظنها اتجهت إلى الجبل الأسود.

صرخ السلطان.

- ماذا تنتظرون اتبعوا تلك الملعونة قبل أن تصل الأراض المحرمة.

قبل أن يشك السلطان بالوصيفة انطلقت راكضة وجهتها البرج العالي.

السلطان يصرخ.

- أوقفوا هذهِ المجرمة، وأتوني بها هي الأخرى.

لم يتمكن أحد من إيقافها، فقد كانت أسرع من السهم المتجه إلى الرمية، وفي ثوان كانت بين أحضان الهواء متجهة إلى الأرض، ثم جسد يرتطم بعنف وعظام تطحن، ودماء تسيل.

الدابة التي تمتطيها الشابة بدأت تتباطأ سرعتها.

- تبًا، هذه كلّ طاقتك؟!

عليّ جعلك تأخذين قسطًا من الراحة، لكن لا تطمعي بالكثير.

بعد استراحة قصيرة استأنفت الرحلة.

بوقار بيت الأدب Bouvar

قبل الغروب بقليل وصلت عند أطراف الجبل الأسود الذي كثرت حوله الأقاويل، وعرف وما حوله باسم الأرض المحرمة.

- الآن انتظري هنا، استمتعي بالرعي في هذا العشب الوفير حتى أعود.

غابت الشابة عن الأبصار متجهة نحو الهدف.

ساعتان من الزمن مرت وصل في أخرها فرسان مدججين بالسلاح، ووجدوا الفرس عند حدود الأرض المحرمة، فقرر قائدهم البقاء منظرين.

قال أحدهم:

- أتنتظرون ميتًا؟!

قائدهم يستفسر منه عن كلامه الغريب.

- هل أصابتك ريح الأرض الملعونة هذهِ، أيّ ميت ننتظر؟!

- سيدي إن صح ودخلت السلطانة الأرض المحرمة لا أظنها تعود، وإن لم تدخلها، فمعناه أنها تركت الدابة هنا لتخدعنا.

نظر إليه بإعجاب، ثم قال:

- نعم، القول قولك أيها الجندي!

أعطي الأمر بالانتشار، والبحث.

الشابة تخرج من ذلك الكهف العجيب الذي عند مدخله مشعلي نار كبيرين.

ظهر أمامها فجأة وحش مخيف.

ارتعبت أول الأمر، وخافت، لكنها تذكرت كلمات الساحر، وطمأنته ألا مخلوق في هذا الجبل سيمسها بأذى.

نظرت إلى الوحش بتمعن، ثم خطت تجاهه خطوتان.

الوجه المرعب ذو العين الواحدة ينظر إليها بحزن متفحص كل تفاصيلها.

" سر من رأى"، والمفاجئة تلفها.

- من "شامشي" !!

ما الذي حصل لك، وكيف تحولت لهذا الشيء المرعب؟!!

ضبع أيعقل حولك إلى ضبع؟!

الوحش ينظر إليها بعينه التي اغرورقت دمع، ثم صرخ صرخة دوت في المكان بعدها أدار ظهره وذهب.

الشابة لم تترك المفاجأة تسيطر عليها كثيرًا، وأسرعت بخطواتها نزولا، وهي تستذكر ما فعل الساحر وأخبر.

- سأمسح على بطنك الآن، وسأجعل جنينك في يدك.

إحساس غريب يسري في الجسد مع ألم، ودم ينزل على الفخذين.

لحظات قصيرة حتى نزلت بيضة صغيرة بحجم بيضة الحمام والبيضة تصدر صوت نبض واضح.

أمسك الساحر البيضة ولعقها بلسانه، ثم قال:

- خذي هذهِ هي ابنتك..

عليك إيداعها في رحم أول امرأة تقابلينها، وكذلك تعطيها المجوهرات التي أخذتها من قصر السلطان، وإياك، والإخفاق في المهمة، ثم بعدها عليك العودة إلى القصر السلطاني قبل شروق شمس الغد، وقتل زوجك، واحتساء دمه، وإن فشلتي في الثانية، فستحل عليك

بوقار بيت الأدب Bouvar

لعنة ملعونة أما إن فشلتي في الأولى، فسأحولك إلى أنثى ضبع جميلة.

ضحكة بصوت قوي مدوي.

الأقدام الجميلة تسرع، وتسرع لتصل إلى أقرب مكان يقطنه إنس.

*** ***

بوقار
بيت الأدب

بوقار
Bouvar
بيت الأدب

الفصل الثاني

عشترونا

بين الجبال الملونة الأربعة حيث السفح الكبير الذي تتربع على أحد أطرافه قرية صغيرة جميلة تعيش فيها فتاة بارعة الجمال كثيرة الدلال ممشوقة القوام؛ وجهها كأنه بدر التمام وشعرها أسود طويل كليل صيف جميل منسدل على ظهرها؛ عيناها سوداوان واسعتان، وثغرها كلوزة صغيرة؛ تميل بمشيتها ميل طرب تأسر كل خافق ينبض بالحياة.

أدارت البنت بحسنها عقول كثير من الرجال وتقدم لخطبتها الأكابر والزعماء من كلّ الأماكن والأصقاع، لكنها كانت ترفض، وعلى الخطاب تعترض، والسبب مجهول.

كان أول ما يسمع في القرية بعد أصوات الديكة، ونباح الكلاب صوت ناي لشاب له غُنيمات قلية يخرج بهنَّ إلى المروج القريبة كلّ

بوقار بيت الأدب

صباح، ثم يعود آخر النهار لتقوم أمه العجوز بحلب الشياه، فتأخذ ما تقتات هي وابنها عليه، والباقي تصيره جبنًا، وتبيعه فيما بعد في سوق القرية.

الحال هو الحال...

كلّ صباح يخرج الشاب تسبقه غنيماته، وهو يعزف بنايه لحنًا رقيقًا من رقته تنصت حتى البلابل.

كالعادة عند مروره من أمام بيت (عشترونا الحسناء)، تستيقظ على صوت النغمات، فتسابق ساقيها للنظر، والتأمل دون أن يراها أو يحس بها.

تمر السويعات على الشاب، وهو يلهو مع كلبه النباح الحارس المغوار هازم الأشرار بينما الحسناء تمشط شعرها ساعة كاملة، وترتيب

بوقار Bouvar بيت الأدب

هندام ساعة أخرى، وما بقي حتى وقت طعام الغداء انقضى بالتأمل والتفكير بأوصاف فارس الأحلام الشهم الوسيم المقاتل.

جلست الفتاة على المائدة العامرة تتناول الطعام أو تدعي ذلك، وهي بين أمها السارحة بخيالها، وأبوها الذي لا يشغل تفكيره سوى أرباح تجارته.

الفتاة تحاول جذب الأنظار، وإبلاغ مَن معها أنها ما زالت على قيد الحياة، وأنها ابنتهم الوحيدة، لكن دون جدوى فكلّ له عالم وبلوى.

انزعجت كثيرًا، وأخذت تفكر بأيّ شيء حتى تقطع ذلك الموت.

تضرب الملاعق ببعضها، ثم تسقط بعضها أرضًا دون نفع يذكر..

همهمات كلمات دون جدوى، فلا حياة لمن تنادي.

بوقار بيت الأدب Bouvar

أخيرًا خطرت في بالها فكرة لم تعرف من أين جاءت، ولماذا لكنها فكرة.

صوت مسموع حازم يطلق.

- أمي، أبي.

نظرات لا مبالاة منزعجة من الطرفين.

ثم تكمل كلامها الفتاة:

- أنا قررتُ الخروج غدًا إلى المروج، أريد الترويح عن نفسي قليلًا.

اللامبالاة جواب متوقع.

عشترونا في قمة انزعاجها تكمل كلامها:

- دون خادمة أو رفقة.

الأب انتفض، وبكلمات قليلة نطق.

- كوني حذرة.

احمر الوجه أكثر.

- ولن أعود حتى المساء.

الأم اخترقت الأجواء عائدة من عالمها الذي كانت فيه.

- إياك أن تتسخ ثيابك، فهي ثمينة.

نهضت البنت، والدموع بصمت تسيل، ثم عاد الموت للحلول حول طاولة الطعام.

في آخر النهار عاد الراعي إلى مسكنه، وانشغل بمساعدة أمه في حلب الشياه بعدها أوقد مصباح الزيت المنهك، وجلس الاثنان بهدوء ومحبه.

الشاب يحكي لأمه عن المروج، وقرص الشمس، وهي بالمقابل تتغنى برجولته، وبره وبطولته.

الكلبُ الحارس النباح عند باب الكوخ الصغير جلس، وليديه مد، ولعينيه أوقد متربصًا عدوًا جبان، أو لصًا خوان.

أطفئ المصباح بعد العشاء، ونام الشاب، وأمه وراحة البال ترفرف حولهما، بينما في بيت الحسناء، فرقص وطبل وغناء، ونبيذ وسكر.

الفتاة تراقب عائلتها، وضيوفهم باشمئزاز، ثم إلى غرفتها صعدت وأوصدت الباب.

أشعةُ شمس جديدة وصباح ندي جميل.

الشاب (محرم)، يسوق أغنامه ويحرك برشاقة أصابعه على نايه.

الصباح هذا عند الحسناء مختلف، فقد نهضت بعد نوم قصير، وتجهزت للخروج إلى المروج.

كانت تقف عند باب بيتها الكبير حينما مر محرم.

نظرت العين إلى العين، فتوقف الصوت، وتجمد الزمن، وانقطعت الأنفاس وإنهار العقل والقلب صارخًا.. واا حباه.

خطوات متعثرة دون وعي، ثم انكفاء على الوجه الذي قبل الأرض.

ضحكة رائعة جميلة من الفم شبيه اللوزة قابلها خجل مما حدث، ثم هرولة وركض إلا أن صوت الفتاة في الاذن التصق، والقلب أسر بجمالها كسائر القلوب التي رأتها من قبل.

وصل الشاب إلى مرتع أغنامه، وهو على غير عادته.

تأمل في السماء، وعيناه لا تريان سوى ذلك الوجه، وأذناه لا تسمعان غير الضحكة الرشيقة.

باءت كلّ محاولات النباح بالفشل في استثارت صاحبه للهو كعادته.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى خطت الجميلة بقدميها المروج، وأخذت تجول بناظريها تتفقد المناظر، وتراقب الرعاء وأغنامهم.

خطوات رشيقة سريعة، ثم دون سابق إنذار هبط القمر بجوار الراعي.

نظرت إليه مبتسمة.

شحوب بالوجه مع ذهول؛ ارتجاف في الشفتين مع انقطاع عن العالم كله.

العين بالعين مرة أخرى، لكنها مختلفة، فالقرب زاد الحلاوة حلاوة، والانبهار انبهار.

عقد اللسان، واختفى ما يعرف من كلام.

عشترونا تداركت الموقف، وللاضطراب والتعجب أزالت.

قالت: كيف حالك؟

الشاب انصدم ولعذوبة الصوت قلبه انهدم.

عيناه من الفرح كادت تنفجر بالدموع.

صراع مع الأنفاس قاسٍ، ثم خرجت الكلمات متكسرة مبعثرة.

- ببب خخخ أنا ييي

ضحكة شقية برقة، ثم أشاحت بوجهها عن وجهه، وأخذت تراقب الأفق البعيد، والشاب باستحياء يتفحص ذلك الوجه الفريد.

الوقت يمضي دون إحساس بالوقت، والشاب يعيش أجمل الأوقات، وقلبه يرقص على أحلى النظرات.

بعد حين تكلمت الحسناء، وهي لاتزال تراقب الأرجاء.

قالت:

- المكان جميل، أنتَ محظوظ لأنك تأتيه كلّ يوم.

الشاب لقواه تمالك، وقرر الكلام بما لم يتكلم من قبل، فالدفة بيد القلب أصحبت، والعقل رفع الراية البيضاء، واستسلم.

- المكان لم يكن أجمل مما عليه اليوم، فالنهار هذا ازداد جماله جمالًا.

ضحكة أخرى شقية، ثم نظرة فيها دفئ وحنان.

الشاب يزداد جراءة، وللكلام يأخذ فيه منحى.

بوقار بيت الأدب Bouvar

قال:

- أنتِ إنس أم ملاك؟!

التفتت إليه بوجهها الصبوح، والفرحة من عينيها تفوح.

قالت:

- بل من بنات حواء، أين أنا وأين الملاك؛ نحن البشر محكومين بالهلاك.

قال:

- لا أظن الملاك أجمل من هذا الجمال، فلا ينقصك سوى الجناح.

ارتفع صوت ضحكاتها، ومن الشاب أعجبها ذلك المقال.

دون سابق انذار اليد الصغيرة الرقية وضعت على البطن الماسية الرشيقة.

قالت:

- أحس بجوع شديد، وفؤادي للطعام يريد.

تفاجأ الشاب وحار، لم يعرف كيف يحل الموقف.

نظر إلى الكيس الصغير، ولسان الحال يقول: أخرج كسر الخبز اليابسة والماء، لكن كيف هذا الطعام سيؤذي حلق الحسناء.

جولة سريعة بالبصر، وعلى إحدى غنيماته وقع النظر.

انتفض من مكانه، ولحسنائه قال:

- أتسمح لي مولاتي أن أكون لها مضيفًا، وأعد لها شيئًا من الطعام؟

عشترونا تصفق بكلتا اليدين تعبيرًا عن فرحتها بالدعوة الكريمة.

قالت:

- أتمنى ذلك.. تجيد الطبخ؟

بفخر مع ابتسامة والشامة أعلى الفم ترقص كعلامة.

قال:

- أجدته لأجل مولاتي.. كلّ ما أريده إعطائي الوقت.

عادت الحسناء لانشغالها بالأفق.

انقض الشاب على شاة صغيرة، واحتضنها بقوة، وإلى أكمة بعيدة أوى.

العين على العين الباسمة تقع، والذكريات القصيرة في الذاكرة تقدح.

لحظات ولادة المسكينة، وكيف تلقاها بيديه في حينها.

بوقار بيت الأدب

كانت صغيرة ضعيفة بعد موت أمها، فقام هو بضمها ورعايتها والاهتمام بها، فكان هو أمها.

تراجعت اليد عن استلال السكين، ورق القلب وارتجف، لكن صوت الحسناء قفز وجلجل داخله وانتشر.

قبضت اليد على مقبض السكين اشتد، ولحلق الذبيحة حز، ثم قطع، وفي قلبه أخذ يحس بوخز كوخز الإبر.

قبل أن ينهي ما بدأ سمع كلبه، وهو بقربه يزمجر.

نظر إليه نظرة استغراب، ورأى في عين الحيوان عتب.

تحدث إليه كعادته، فهو قبل اليوم كان أنيس وحدته، ورفيق عزلته.

- لا تقلق فلك شيء من الأحشاء، ومن الدم المسفوح يمكنك اللعق.

بوقار بيت الأدب Bouvar

زاد النباح زمجرة، وكأنه يعترض على ما سمع.

أنهى الشاب ما بدأ بسرعة ورشاقة، ثم أوقد النار وبالشوي بدأ.

ولمعدة الذبيحة مع الأمعاء للنباح قدم.

تقدم الكلب وبدأ يشم، ثم رفع رأسه، وإلى سيده نظر.

الذيل خفض، بنباح مبحوح أطلق، ومن أمام راعي الأغنام انصرف،

وعاد قرب الأغنام ليرقد.

رائحة الشواء في المكان انتشرت.

الشاب يتنقل بسرعة ورشاقة بين الضيفة والشواء.

يبتسم لها تارة، ويحدق في وجهها أخرى، وهو غير مصدق مَن أمامه.

وهي بابتسامة رقيقة من ثغرها عليه تنعم.

مرة الوقت سريعًا، والطعام نضج، فحمل على عجالة ليستقر بعد رحلة سريعة بين يدي الجميلة.

رغم اعتيادها على المنظر إلا أن امتزاجه بروعة المكان لها قد أبهر.

انسحب الشاب وجلس على مقربة من الضيفة بعد تقريبه قربة الماء الخجلة.

أخذ يراقب متلهفًا لحظة بدأ الفم الجميل بالحركة.

نظرت إليه باسمة، وقالت:

- ألا تشاركني الطعام؟!

قلبه صرخ قبل لسانه قائلًا:

- أخاف أن تلوث يداي عذوبة يدكِ، وأخاف الحرمان من منظر النظر إلى مطعمك، كلي، وأنا أشبع.

نطق اللسان قائلًا:

- كلي هنيئًا أنا مستمتع هكذا.

قالت:

- لن أمد يدي إلى الطعام حتى تشاركني، فآنس بك، وتأنس بي.

بين الخجل والتردد، والإلحاح مع الاضطرار جلس المتيم قبالة حسنائه الوضاءة يشاركها الطعام، ويختلس النظرة تلو الأخرى من بدر التمام.

مد يده قبلها، ولفخذ الذبيحة اقتلع، وأمام الحسناء وضع.

تبسمت، وشمرت عن ساعديها، فكان نورهما أبهر ما رأى.

استلت شيئًا من اللحم، وأخذت اللآلئ المرصوفة في الفم للحم تقطع وتمضغ.

تسلل الطعم العجيب إلى داخلها، وكأنها أصيبت بسحر.

تكلمت بصوت مرتفع.

- يا لهذا الطعم!

ثم بالسؤال توجهت لمضيفها فاغر الفم.

- أهذا لحم؟!

الخوف إلى النفس تسلل، والقلق أنه لم يتقن الشوي تغلغل.

- نعم، هو لحم، لحم طري طازج مشوي، لمَ ما الأمر؟! لم تجبه، وإنما أخذت قطعة أخرى، ولفمها أدخلت، وإذا إحساس بالنشوة والروعة والشهوة يسيطر على كلّ شيء.

الساعد الثاني يساعد في رفع الفخذ وإيصاله إلى الفم.

أخذت تأكل، وتأكل؛ نسيت ما حولها، فالطعم سيطر على تركيزها.

بوقار بيت الأدب Bouvar

محرم في السعادة غرق، ولم ينتبه لغرابة الموقف، بل أعجب بما يحدث، وشارك الضيفة الطعام.

تعالت الضحكات، وسيطرت على الأجواء.

نهض النباح وبدأ يقترب ببطء، وعندما صار قاب قوس أو أدنى لنباحه أطلق.

انزعجت الحسناء جدًا وبإحدى العظام رمته، ولحبينه شجت.

انسحب مطأطأ الرأس وبدأ الشكوى مطلقًا أصواتًا أشبه بالعواء والدمع من عينيه نزل.

نظر الشاب لصديقه الوفي، فأحس بقلبه اعتصر، ولما أراد الكلام معترضًا على ما حصل أسر بعيني الفتاة، وصمت.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى أحيل الطعام إلى كومة عظام.

بوقار بيت الأدب Bouvar

وقد نسيت الشابة مطلبها الذي كانت تعتزم، وهو العزف لها على نايه بأجمل النغم.

عشترونا تحدث نفسها بصمت: أيعقل أني التهمت كلّ ذلك اللحم؟ كيف؟!

لمَ، لم أتمالك نفسي؟

استلقت على ظهرها، فصعق الشاب لكمال حسنها.

تجولت العينان تتفقد تضاريس الجسد الفتان.

أحسن محرم بكثير من الجنون.

نهض يركض حول الحسناء، ويقفز فرحًا، وطربًا حتى أفرغ ما في جوفه من طعام.

انقضى ما تبقى من النهار، وعشترونا بين مستلقية تتأمل السماء أو جالسة تنظر الفضاء.

الشاب بين محدث لها بأدب أو صامت ينظر إلى حسنها بانبهار، والشغف بها في كل لحظة يزداد.

ها هو قرص الشمس يحاول الهروب على عجل.

نهضت الشابة، ولمضيفها مودعة، ولم تتمكن الصمود أمام إلحاحه حتى قطعت له وعدًا بالزيارة غدًا.

بعد غياب إطلالة الحسناء استفاق الراعي، وانتبه لما فعل.

نظر في المكان، وللغنيمات بعينيه تفقد.

غمره الندم.

- ماذا سأقول لأمي؟

كيف سأبرر ما حدث؟

تفكير، وتفكير، ثم قفزت الفكرة، ووسوست النفس بأمر.

الأقدام تجد السير مسرعة، وهي تتراقص على الطريق بخفة ورشاقة.

- كان نهار من أجمل الأوقات، قلبي رقص فرحًا، والشاب كان في منتهى الطيبة.

أخذت الكلمات تخرج بتلقائية مع دندنة وأنغام.

- يا شمس لا تغيبي حتى ألقى نصيبي.. نصيبي الشاب الوسيم صاحب الشعر المجعد الطويل، والعيون الواسعة العسلية.

صرخ بها صارخ حتى توقفت عن الدندنة، والسير كذلك.

تلفتت يمينًا، وشمالًا، لا أحد في الجوار.

نظرت فوق، لا شيء، حتى الطيور من السماء اختفت.

عاودت السير من جديد، وهي تظن أن الأمر مجرد وهم.

رجعت الكلمات تتراقص في الفم.

- قابلته، نعم، قابلته، هو من كنتُ أحلم بهِ.. قلب طيب، وجسد مفتول العضلات.. كريم شهم.

صرخ الصارخ مرة أخرى، والصوت أكثر وضوح.

الحسناء تسرع بخطى خوف.

تكلمت تريد اسماع من يسمعها، والنبرة تتأرجح بين الخوف والغضب.

- مَن أنت؟! ماذا تريد؟!

الصوت البشع يقترب منها أكثر.

بوقار بيت الأدب

- لا تخافي، لن أؤذيك.

تركيز، وتركيز حتى تبينت لها الرؤية.

غمامة سوداء صغيرة تتشكل أمامها على هيئة عجوز شريرة.

وجه قبيح بأنف مريع طويل، وعينان كبيرتان حمراء مع فم بلا أسنان.

صرخت الشابة.

- أعوذ بك برب الإنس، والجان أن تؤذيني أو تقربيني.

ضحكة مرعبة بنسمات هواء بارد يقشعر له البدن.

- لا تخافي يا صغيرتي.

ثم تغيرت نبرة الصوت، وتحول إلى الهمس المغلف بالبرد القاسي.

- أنا جئت لأخبركِ بسر خطير وأمر مهم جليل.

بوقار بيت الأدب Bouvar

ضحكة عفوية معها خطوات سريعة خطط لها مسبقًا.

- إلى اللقاء.

زادت في سرعتها، وتحولت خطواتها لهرولة.

- أيتها المخلوقة البشعة.

لم تتحرك الغمامة وبان عليها الحزن، والانكسار.

ابتعدت عشترونا عن ذلك الشيء وبقيت تسترق النظر إليه، وهي تهرول.

رأت شيئًا غريبًا، فقد تحولت تلك العين الشريرة إلى منكسرة حزينة.

دخلت البيت، وهي تحاول نسيان ما حصل لها في طريق العودة مؤولة ما حصل بأنه أحد أفراد الجن ممن كانت تراهم في نومها، وهم يكلمونها بأصوات لا تفهمها.

دخلت، وللأم قبلت، ولأبيها عانقت، وبوجه خادمتها ابتسمت، ثم إلى غرفتها صعدت، وهي بين فرحة مغتبطة، وخائفة مضطربة.

محرم يقود غنيماته عائدًا، والهم له أمسى صاحبًا.

مخه لا يتوقف عن ترتيب الأفكار.

أدخل الشياه، والحزن على الوجه قد لاح.

النباح كالعادة أخذ مكانه عند الباب، لكنه هذهِ المرة مكسور حزين، والدم قد جف على شعر جبهته.

أم محرم صدمت لما رأت منظر ابنها.

- الويل لي ما بك؟! ما الذي حصل لك؟!!

ما هذهِ الدماء على قميصك، وما بقايا الصوف التي بيديك.

انفجر الشاب باكيًا، ولأمه شاكيًا.

- الضبع الأعور يا أمي، وزمرته على المروج هجم، ولإحدى الغنيمات أخذ.

حاولت أنا والمسكين نباح تخليصها قبل إزهاق روحها، لكن الأمر فشل.

أمسك بيد أمه وسحبها إلى الخارج.

- انظري إلى جبهة الكلب كيف شجت.

الأم حزينة تجثو على ركبتيها تتفقد حارس أموالها.

- مسكين ماذا حدث له؟!

بوقار بيت الأدب

- ضربه الضبع الأعور كبير الجسد وهو يحاول تخليص الصغيرة، فشج جبهته وأسال دمه.

نهضت، ومنظر الخوف على وجهها قد ارتسم، ثم أخذت وحيدها بحضنها، وطمأنته أن ما يهمها السلامة له.

- لا تخرج غدًا إلى المرعى، فلدينا القليل من التبن المدخر، وشيء من الشعير الأسمر، نعطيه لحيواناتنا حتى يكف الوحش وعصابته الأغارة على مروجنا.

الأم باستغراب، وحيره.

- لم يفعلها منذ سنوات طويلة، صاحب الوجه الكريه ذلك المسخ القبيح.

انتفض الابن يدعي دور البطولة.

بوقار بيت الأدب

- لا يا أماه، ماذا تقولين؟! التبن ادخرناه للشتاء تعلمين، والشعير طعامي وطعامك، فإن نفد ما نحنُ فاعلين؟!

رفع الرأس عاليًا.

- سأخرج، ولن يحدث شيء لا تهتمي.

- بني خوفي عليك أكبر من خوفي على مصدر عيشي وعيشك، أنت وحيدي، فلا تفجع قلبي بك يا فريدي.. ابقَ هذهِ الأيام أرجوك.

- لا تقلقي يا حبيبتي، سأكون بخير أعدكِ.

بعد نقاش طويل، ومحاولات إقناع يائسة استسلمت الأم الخائفة.

في منزل عشترونا كالعادة بدأت حفلة كلّ ليلة.

انزوت الفتاة في غرفتها، ووقفت كالعادة تتأمل النجوم من شرفتها.

بوقار بيت الأدب Bouvar

تستذكر اللحظات الجميلة التي قضتها برفقة مَن أسمته حلمها.

ظهر طائر البومة يحوم في سماء المكان، والعين اعتادت على رؤيته بين الحين والآخر.

أخذت الفتاة تراقب طريقة طيرانه المتعثرة، وقد أزعجها صوته الذي تسلل إلى نفسها وأحست برعب مغمس كآبة. اقترب الطائر، واقترب، حتى صار للشرفة من الفضاء أقرب.تراجعت عشترونا في قلق وريبة من هذا الاقتراب الغريب.

همت بإغلاق الباب المؤدي إلى الشرفة، واللجوء إلى سريرها فارة.

في لمح البصر استقرت البومة على أحد أعمدة سريرها النحاسي، وأخذت تنظر إلى الفتاة بحزن.

البنت تسابق الريح لتصل إلى باب الغرفة هاربة، لكن قدماها تحجرتا مكانهما، وبصرها اقتيد عنوة ليلقي النظر على عيني الطائر.

البومة تخرج صوتًا حزينًا فيه برد شديد، وحزن دفين.

- لمَ هربتِ مني يا بنيتي؟

أتكرهين أمك؟

هذا عار عليك!

لكني أعذرك، فحياتك البشرية أثرت عليك.

قريبًا روحك ستنتصر، وستعودين لما أنت عليه، وتكملين ما وجدتي لأجله.

كلام مبهم، وطائر غريب يتكلم.

لم تعد الفتاة تسيطر على مشاعرها أو كلماتها.

تكلمت بعد أن استجمعت جميع جرأتها.

- ما هذا الكلام؟!

أيّ أم، وأيّ حياة، وأيّ روح؟!

وضح لي أيها المخلوق، وبح.

قفز الطائر من العمود إلى الأرض، ثم علا الدخان فنهضت الغمامة المتشكلة على هيئة العجوز الشريرة.

تحركت بلمح البصر، وخرج جزء من الغمامة متشكلًا على شكل يد، وإلى جبين الفتاة امتد.

برد شديد تسلل من الجبين إلى القلب.

أخذ الجسد يرتعش، وينتفض، والصور تخرج.

العجوز تنقل ما مضى قبل سنين من أحداث إلى ذاكرة الفتاة.

بوقار بيت الأدب Bouvar

امرأة جميلة تشبهها ترتدي ملابس رائعة، وهي تركض، وعلى وجهها علامات الهلع؛ ثم في مكان أخر فرسان بملابس سود يمتطون الخيول، وكأنهم يبحثون عن ضالة ثمينة.

المرأة مسرعة، وهي تنحدر من أعلى جبل والليل أشد ظلامًا من ظلمة قبر.

سير بان عليه الخوف، ثم دخلت كوخًا صغيرًا فيه شابين رجل، وامرأة يجلسان قرب موقد نار حزينين مهمومين.

تأملت عشترونا، وركزت بالحزينين، فعرفت أنهما أبوها، وأمها.

المرأة الجميلة تتحدث بسرعة مع الزوجين بكلام غير مفهوم للفتاة، فالصوت فيه تشويش، وصدى، ثم كيس مجوهرات كبير تسلمه

المرأة للرجل بعدها تصطحب الزوجة، وتختلي بها في الغرفة الوحيدة داخل الكوخ.

الزوج قرب الموقد والفرح في قلبه اتقد بعد فتحه للكيس، والانبهار بما فيه، وأخذ يضحك رغم سماعه صراخ زوجته.

أبعدت الغمامة الجزء الممتد عن جبين الفتاة التي أصيبت بدهشة افقدتها التركيز.

بحيرة، وريبة، ونظرات مصدومة غريبة سألت.

- ما هذا الذي أريتني، ومن المرأة، وما قصة أبي وأمي معها؟!

تحولت العينان الحمراوان الشريرتان إلى منكسرتين ذليلتين.

تضاءلت الغمامة حتى صارت بحجم الحمامة، ثم قالت والصوت مرتجف مكبوت:

بوقار بيت الأدب Bouvar

- المرأة هي أنا..

أنا أمك واسمي سر من رأى.

أما مَن تسميها أمك هي مضيفتك التي برحمها حللت، وفي كنفها تربيت.

قبل أن تعترض عشترونا على الكلام أو تبدي انزعاجها لما سمعت اعترضتها الغمامة، وبصوت زاجر لها قوي قالت:

- لا تقاطعي أو تحاولي الاعتراض..

أنت لست منهم، ولا من جنسهم، لكن بقاؤك شهور في رحم تلك الخبيثة جعل قلبك القوي يهن، ويركن لهم، فاعتقدت أنك بشر مثلهم.

الفتاة بقوة تسأل، وصارت كلماتها بين الجدران تجلجل.

- هههه ما هذا؟!

أنا بشر ألا ترين الجسد الفتان، والوجه الذي تَغزل به الشيبان قبل الشبان؟!

بل حتى المرأة التي أريتني وادعيت أنها أنتِ، بشرية أيضًا.

- انتظري حتى أكمل ما بدأتُ.

قرع على الباب قوي.

الخادمة تنادي سيدتها بعد سماعها أصوات غريبة مصدرها غرفة عشترونا.

الغمامة تعود للتحول إلى بومة.

الفتاة تستوقف الطائر، وهو يهم بالمغادرة.

- انتظري لا تتركين في حيرة من أمري.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- لا تقلقي روحك ستقودك، فقط عيشي أيامك.

لكني أحذرك من كثرت الأحلام، ومحاولة الحب والغرام مثلهم.

حركة الجناحين بقوة، وأطلقت آخر الكلمات قبل المغادرة.

- سأكون قريبة منك حتى تكملي ما بدأته أمك.

حذاري، ثم حذاري من إخبار أحد منهم عن أخباري.

في الصباح هم الراعي للانطلاق، ومشاعره تتخبط بين الفرحة المترقبة لرؤية الشمس التي أشرقت في حياته، وبين الحزن على الكذبة الكبيرة التي نسج خيوطها وحاكها، ثم ألقاه في حجر أمه التي صدقتها دون تحقيق أو تمحيص، فأصابها حزن على حزن ابنها المدعى.

الام هي الأخرى تتردد بين الخوف والأمل.

بوقار بيت الأدب Bouvar

خوف على ابنها من الوحش الذي طالما ذاع صيته، وتناقلت الناس قصص وحشيته، وبين الأمل الذي تدفع رياحه مركبها بعودة وحيدها سالمًا مع غنيماتها.

الأم بصيغة الزجر توصي النباح، وتأمره بأن يذود عن سيده أولًا، ثم الغنيمات ثانيًا.

انطلق الراعي، وكعادته على نايه تراقصت أصابعه.

خطوات مسرعة مستعجلة.

النباح على غير عادته من الركض بفرح حول صاحبه، فقد كان يسير في الأمام ولأذنيه مع الذيل قد نكس.

أما الأغنام، فكن للسير أجد ولمرعاهنَّ في شوق أشد.

وصل أمام بيت عشترونا ودقق النظر دون أن يقع بصره على شيء مما له في القلب ذكر.

الحسناء اليوم على غير عادتها في مراقبة الراعي أو الوقوف في شرفتها، فقدت كانت لفراشها ملازمة، وبالحمى والمرض عائمة، وهي تعيش الذهول منذ أمس.

انقضى النهار، والراعي ينتظر بفارغ الصبر.

الشابة عن فراشها لم تبرح، وللطعام لم تذق.

عاد الشاب في المساء، وهو مهموم منزعج.

- ما بك بني لمَ التجهم؟!

- لا شيء بي فقط القليل من التعب.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- غريب! هذهِ أول مرة في حياتك تشكُ من تعب، كنتَ تصبح مرحًا، وتمسي فرحًا.

- لا شيء أمي، لا شيء.

سكتت وهي تتوجس الخيفة والريبة من أمر لا تعرفه وتوجست الشر يكتنفه.

اليوم بعد اليوم يمر، والشاب لم يقطع الأمل، وأخذ يفكر في الذهاب إلى بيت التي بالشوق إليها تتيم.

عشترونا للحيرة استسلمت، وصارت عصبية حادة الكلمات مع من سميت أمها، ولأبيها لم تعد تكترث. انقضى أسبوع على زيارة الطائر، وكلّ لحظة تود الشابة الانفجار بمن في الدار، وفضح ما خبأته السنون من أسرار.

بوقار بيت الأدب

الشاب كذلك أمسى عصبي.

- صباح الخير سيدتي، إلى أين العزم أراك شاحبة مجهدة، ومن الأفضل أن تستريحي.

- أريد الذهاب إلى المروج، فصدري مقبوض من هذا المكان.

- خير ما تفعلين، واسمحي لي بمرافقتك إذا تحبين.

- بل سأذهب وحدي لا أريد أحد من أهل هذا المكان معي.

خطوات سريعة عبر الممر دون سلام ولا تحية.

الشاب جالس حزين ينكث بعصاه الأرض، والنابح جالس بجواره، والبهجة قد عادت إليه.

صوت أقدام تقترب، لكن الشاب غير مكترث، فلعله أحد الرعاء جاء يزعجه.

بوقار بيت الأدب Bouvar

الظل الرشيق انحنى، وفي أذن الحزين دندن.

- أنت قاسي القلب.

تفتحت العينان بقوة، واشرأبت النفس من حزنها نحو البهجة.

حرك رأسه ليصطدم بصره بشمس عمره كما قرر تسميتها في سره.

- أنا قاسي القلب؟!

- أيام طويلة، وأنا مختفية، وقد كسرت وعدي ولم آت.

ألم يخطر على بالك أنّ خطبًا حصل؟

تنهد، وحسرة.

- خطر على بالي أنّ الأميرةَ صحت، وتذكرت مقامها ومركزها، فعدلت عن تكرار غلطتها.

- غلطة؟! أيّ غلطة؟!

بوقار بيت الأدب

- الجلوس مع راعي غنم فقير حقير الشأن.

مدت اليد، واتكأت على الكتف، ثم هبط الجسد الرقيق بجوار الراعي الفقير.

ضحكة غريبة فيها شيء من البراءة، والطيبة، لكن ليست كما مضى، فالداخل أخذ غير منحنى.

- هيا أخرج نايك، وأسمعني أنغامك، فأنا منذ زمن في شوق لذلك.

اليدان تعبثان في سائر الجسد.

- أين، أين هو الناي؟ تبًا عليّ إيجاده لقد اختفى.

ضحكة شقية.

- إنه معلق على خصرك ألا تراه؟

- شروقكِ أنساني اسمي، واسم أمي، وأبي.

بدأت الأنغام الجميلة تتطاير في المكان، وأخذت الحسناء تميل برأسها طربًا وانسجام، ثم وضعت كفها الصغير على كتف الشاب، وألحقته بالآخر ولخدها على كفيها أودعت.

انتشاء، وفرح، ولمزيد من الأنغام في الفضاء طرح.

قربت جسدها منه أكثر، فأحس بالدنيا حيزت له.

رفضت الشابة عرض الشاب بنحر شاة ترحيبًا بقدومها، فاطلق النباح نباحه فرحًا، وتراقصت الغنيمات بأفوهها على العشب طربًا.

عشترونا تشارك محرم خبزه وماءه.

انقضى النهار بين عزف، وابتسامة، وأسئلة بسيطة عن الشابة وحياته.

عادت الحسناء إلى البيت فرحة، لكنها طول الطريق قلقة.

- أرجو ألا تظهر لي المخلوقة المرعبة، عليّ نسيان ما قالت حتى إن كان هو الصدق والحقيقة، فحياتي هذه جميلة، وأنا قبلتُ بها كهدية.

صاحت بصوت عالٍ وهي تسير في الطريق وحدها.

- إنها هدية، وأنا قبلتها أرجوك لا تعودي أبدًا إلى هنا.

محرم يعود لبيته مغتبط، ولأمه يحتضن، ولكلبه يكيل الكثير من الرعاية والاهتمام.

توالت الأيام...

زيارات متتالية من قبل الحسناء للمراعي.

الكلمات تطورت وكالعادة الكلام اقترب كلام الحب، والهيام إلا أن الشاب كان حذرًا ويخاف الإفصاح عما في داخله حتى جاء ذلك اليوم.

صباح جميل ككلّ الصباحات الرائعة.

الراعي يجد الخطى للوصل إلى المرعى، ونايه لا يفترعن النغم.

وصل أمام بيت الحسناء وكانت هناك المفاجأة.

عشترونا تقف بانتظار المقصود، وفي يدها صرة فيها طعام أعدته بنفسها.

توقف الراعي، وواصلت الرعية السير مع حارسها الأمين الذي أطلق الزمجرة كعادته.

ألقيت التحية بابتسامة متبادلة.

انضمت إلى الشاب الذي كان قد قرر بعشقه لها في هذا اليوم يبوح.

وصول بفرح إلى المراعي، ثم جلس الشابان دون كلام فقط العين بالعين التقت، والقلب بدأ بمد يده إلى القلب.

عشترونا تنهي الصمت بكلمات رقيقة برفقتها ابتسامة رشيقة.

- جلبت لك طعام تطعمه أعدته بنفسي لك، أرجو أن ينال رضاك.

- بكلّ تأكيد أن طعمه أحلى من الشهد، هاته.

النفس عاهدت لو كان سمًا زعافًا ستلتهمه حتى آخره.

صوت قاطع تلك اللحظات الجميلة.

التفت الاثنان سويًا ناحية صوت صهيل فرس مسرع على ظهره فارس شاب.

نهض محرم يستقبل القادم وعلى وجهه رسم ابتسامة استقبال الغريب، وفي قلبه انزعاج وانقباض مريب.

ترجل الفارس المتوشح بسيف طويل والمعتمر خوذة تغطي وجهه ما عدا أنفه وعينيه وفمه.

استقر على الأرض، وللشاب بعد خلع قفازه صافح، ثم لخوذته خلع، فبانت وسامته الشديدة، ورقص شعره الأحمر الجميل الطويل حين داعبته نسائم الهواء العليل.

العين تتفحص تقاسيم الوجه الجميل، والفم يكلم المستقبل المنزعج المبتسم.

- جئتُ أسئل عن بيت الشيخ حران كبير التجار المحترم.

السائل يقصد بيت الحسناء والاسم اسم أبيها والمهنة كذلك، فلا مجال للشك أو الريبة.

نطق الفم الشبيه باللوز دون استئذان مخترق بصوته الرقيق المسامع.

- ما تريد منه يا سيدي الفارس؟

محرم بدأ يغلي انزعاجًا، وغيرة بعدما رأى نظرات في عيني البنت مريبة تنذر بأمر خطير سيقع.

الفارس يجيب.

- جئت بعد ما سمعتُ أن عنده جوهرة ثمينة تهافت العشاق لاقتنائها وفشلوا، وأنا بطبيعتي أحب الصعاب، فقررتُ خوض هذهِ

المغامرة لعلي أوفق في تقديم الثمن، وعاهدت النفس، إما الحصول على البغية أو الهلاك دون ذلك.

الراعي يحاول المقاطعة بعد اطمئنانه أن السائل جاء لبيع وشراء مع التاجر المشهور ببيع كلّ شيء.

- سأدلك...

قاطعت الفتاة كلام الراعي بطرحها سؤال على الفارس.

- سبق لك يا سيدي خوض المغامرات والفوز بالمجوهرات؟

بفخر، وكبرياء.

- كثيرة هي المغامرات والأكثر في حياتي المقامرات، لكني لم أكن أبحث سوى عن جوهرة واحدة بين كلّ الجواهر، وأظني قد وجدتها أخيرًا.

لمعة عين الفارس توصل رسالة.

صرخ صوت في داخل عشترونا حينما انحنا الشاب أمامها، وهو يطلب منها معرفة اسمها.

صوت البومة يصدح في أذن الشابة، ويقول:

- إنه نصيبك المكتوب، إنه عشقك المرغوب، هيا اقفزي على دابته واذهبي معه.

محرم وسط تبادل العبارات والنظرات، أصبح كالأبله لا حول له ولا حيله سوى متابعة المشهد.

- اسمي عشترونا يا سيدي الفارس، وحضرتك ألا تشرفنا باسمك؟

- عشترونا؟!! أنت هي الغاية، والمقصد.. ما أروع الشمس عندما تهبط على الأرض.

الراعي يصرخ في داخله.

- هذهِ عبارتي يا هذا.

- أنا اسمي (آب ابن تموز)، ملك مملكة (آربادا).

انحنت له بكلّ وقار واحترام، ورحبت به على أحسن ما يرام.

محرم يقاطع المشهد، وبصوت منزعج يتكلم.

- شرفنا مرورك بنا سيدي الأمير، والآن بإمكانك الرحيل، فعشترونا...

تكلمت الشابة مقاطعة، وبنبرة مؤنبة حادة.

- أهكذا تعامل الضيوف!.. علينا الاعتناء به بما يليق بمقامه العالي.

الكلام موجه للفارس عريض الصدر مرتفع الهامة.

- تفضل سيدي سأدلك على بيت أبي حتى تلقى الحفاوة، والترحاب الذي يليق بك.. وطلبك مجاب.

كلمات خرجت من فم الحسناء بعناء، وهي نفسها لا تعرف كيف حصل ذلك.

أهو القدر أخرجها أم هي حقيقتها التي أخفت سابقتها؟!

تكمل الكلام بحزم، واحترام.

- فهذا المكان لا يليق بك.

نظرة غريبة تجاه الراعي المصدوم.

آب يتكلم.

- اسمحي لي أن أصحبك على ظهر (رياح بنت إعصار) فرسي المغوار.

قفزة رشيقة، واستقر الفارس على ظهر مطيته، ثم مد اليد تستقبل جوهرته.

الفتاة تخط الخطى مستعجلة، وللطعام الذي أعدت لأنيس الأمس بقدميها مبعثرة، وقلب الراعي معها تقطع.

استقرت هي الأخرى على ظهر الدابة.

وقعت العين على عين المخذول المصدوم.

فنبض قلبها نبضتين أحست بعدها بصوت زجاج داخلها قد تكسر، وبعد ذلك اختلف نبض قلبها، وصار للصمت أقرب، وللبرد أحب.

انطلقت الفرس تضع بصمات حذوتها في الطريق الضيق، مخلفة خلفها قلبًا تصدع وتشظى، وعقلًا دخل في متاهة الضياع ومن أعلى جبل للتيه تردى.

بوقار بيت الأدب Bouvar

كعادته عندما يصاب بالحزن جلس جلسة الجنين، وعيناه تنظران في اتجاه واحد.

الذي يراه يظنه يراقب أغنامه بحرص وحذر، والحقيقة أنه لم يعد يرى سوى اللون الأسود أمامه وأخذ يأنب نفسه على غباءه، وتماديه بأحلامه الوردية.

أحس أنه تناثر آلاف الأشلاء، وأخذ يبحث في داخله عن أيّ شيء يفسر له ما حصل.

- ترى لمَ هذا، وكيف؟!

أيعقل أن عينيها كانتا تكذبان؟!

شفتاها تخدعان؟!

أنفاسها تمثل؟!

حركاتها، ضحكاتها؟!

تعابير وجهها؟!

كله كذب، وخداع؟!

أم أني كنتُ للتسلية، و إطفاء بعض الرغبات لحين قدوم من يليق بالسيدة؟!

نعم، كنتُ لقضاء الوقت فقط.

نحنُ الفقراء لا نصلح إلا لقضاء النزوات، وعلينا الصمت، والنسيان، فمشاعرنا ليست برقي ملابسهم ومنازلهم.

يجب أن أقبل بهذا.

آآآه.. منكن يا بنات حواء، عيونكنَ دائمة النظر إلى أعلى.

لا يهم مَن يكون، وهل يملك قلبًا نابضًا أم لا؟.

تُمثلنَ دور الحب، ومع أول فرصة حقيقية للجاه ينتهي كلّ شيء، وتظهر حقيقة الكائن المقرف البشع داخلكن.

انتفض محرم وانتصب واقفًا وهو يحدث نفسه بصوت مسموع.

- عليّ الانتقام، عليّ أن أريها مَن هو هذا الإنسان الذي داست على قلبه، وأحالته إلى فتات.

عليها معرفة الإنسان الذي سحقت أحلامه، وحولتها إلى رماد.

لحظة من التأمل حوله، ثم عاد لوضعه الأول.

هبط أرضًا وهو مكسور أكثر من قبل يحدث نفسه بصوت منخفض خافت.

- مَن أنتَ يا تافه حتى تقف أمام أمير، وابنة تاجر؟.

قليل من الدموع المحرقة النابعة من قلب موجوع وبعدها عاد لينتفض على واقعه رافضًا انكساره وخنوعه.

- أنا أتحدث عن امرأة كسرتني آلمتني أدخلت يدها في روحي، وعبثت بها، ثم شوهتها وتركتها تأن ألمًا، وعليّ أخذ حقي منها بأي طريقة.

نعم، لي حقّ كبير عندها.. لن يتم استرداده إلا أن تكون لي امرأة ولأمي خادمة، وللأغنام راعية.

ضحكة فيها غباء، وبلادة.

- هذا ما سيحصل.

صمت لثواني، ثم صيحة بكلمة واحدة.

- اخرس.

بعدها استل نايه، وأخذ يعزف عليه بهستيرية، وهو يحوم حول أغنامه بطريقة غبية أشبه بالقفز، والرقص معًا.

طريقة رقص الحمامة المذبوحة.

أنهك، وتعب، ثم ارتمى على العشب منكفئًا.

حاول البكاء، لكن لم يجد الدمع له طريقة يمر خلاله خارج العينين.

مر الوقت، وهو بين مستلق أو جالس أو واقف.

متوعد أو متوسل أو هاتف. اقتربت الشمس من عشها لتنام فيه، فبدأ النباح الذي آثر الصمت طيلة ما مضى من وقت النباح ليعلم صاحبه بأن وقت النوح، والثرثرة مع النفس انتهى.

عليك النهوض، والعودة بحيواناتك إلى المنزل، وترك بلاهتك تلك.

بوقار بيت الأدب Bouvar

نظر الشاب إلى كلبه، وبصوت حازم قال له:

- يا صديقي الوفي، خذ الأغنام إلى البيت وسألحق بكم بعد قليل ما زال في النفس غصة، ولا أرغب رؤية أمي وأنا على هذا الحال من البؤس.

لا أريد لقلبها أن يكسر، ولا لروحها أن تقلق. ارجع يا صديقي أنا قادم في إثرك.

لبى نباح الأمر، وللأغنام قاد، ولطريق العودة سلك.

دقائق قليلة، وبدأ الظلام يتسلل إلى المكان بهدوء، وأخذت الأصوات الغريبة تظهر.

عيون صغيرة تراقب من بعيد.

أقدام ضئيلة بين الحشائش انتشرت تبحث عن قوتها.

محرم أحس بقشعريرة في جسده، والخدر في قدميه.

انتبه على حاله، وقرر مغادرة المكان غير أن حزنه ما زال يخيم عليه بثقل.

شيء ما يقترب.

لا يراه لكن يحسه.

استل سكينه، وتصلب واقفًا، وببصر حاول إلقاء القبض على أيّ عدو مفترض.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى ظهر المنتظر المعتبر عدو.

- بومة!

نظر الشاب بتمعن وتكلم مع الطائر وهو موقن من عدم الرد.

- مسكين، جناحك مكسور أم أنتَ متعب؟

لمَ تسير على رجليك ولا تطير؟!

أظن حبيبًا ذا قلب متحجر خذلك، فأمسى حالك كحالي.

جثى على ركبتيه، ورفع الطائر ينظر إلى وجهه الحزين.

- وجهك كوجهي لا يصلح للحب فقط لقضاء الوقت ليس إلا.

دعني آخذك معي إلى البيت، وهناك أرى ما عساي تقديمه لك.

لم تكتمل الخطوة الثالثة حتى تكلم الطائر، وكان الصوت البشع ذاته.

ارتجف الراعي، وارتعد، وللبومة بعيدًا قذف.

محاولة الجري بدأت غير أن قدماه في العشب الطويل تعثرت فوقع أرضًا، ثم رفع رأسه محاولًا النهوض ليجد الطائر أمامه ينظر إليه بعين غضب.

- لا تخف مني لن أؤذيك. اسمع ما أقول، فأنا هنا لنجدتك، ومساعدتك.

الشاب يتمتم، يحاول إخراج الكلمات من الفم.

- الطيور لا تتكلم أم أنت من عالم الجن؟!

نعم، الجن، أرجوك أنا فقير وحيد امرأة مسكينة.

حاول كسب الوقت ليتذكر كلمات جدته عن صرف الجن، لكن الذاكرة لم تسعفه.

الطائر يتكلم.

- لا تفكر في صرفي، فأنا لستُ منهم، ودعك من هذا كله، وانصت لي بتمعن.

وصل النباح أمام البيت، ولنباحه أطلق حتى تخرج عليه سيدته وتقوم بما كان يقوم به الراعي.

الباب يفتح بهدوء، وأثناء خروج المرأة أخذت تتكلم.

- ما الأمر يا محرم، لمَ تركتَ نباحًا ينبح سيزعج الجيران ويقلق الصبيان.

أين أنتَ يا ولدي.. أرجوك لا تختبئ كعادتك اخرج، فقلبي لا يحتمل مزاحك.

بحثت، وتأكدت.

القلب للفزع أمسى موطنًا، والخوف من العقل تمكنَ.

- نباح أين سيدك؟ أخطب أصابه أم ماذا؟

الكلب يتحرك باضطراب ذهابًا وإيابًا في محاولة للإشارة على الطريق، وإفهامها أنه بقي هناك يكابد الاحزان، والنكبات.

- يا إلهي تبًا أكلم من لا يعقل، أنا بلهاء، ابني أصابه خطب أنا متأكدة، فقلبي منذ الصباح يعتصر، ونفسي مقبوضة وفي وجل، تبًا للنساء ولعشقهنَّ.

أدخلت غنيماتها، ثم انطلقت بصحبة النباح تبحث عن ابنها، وهي تكلم النباح، وتقول:

- كنتُ أعلم أنه وقع في حب إحداهنَّ، فوجهه كان يفضح قلبه، وكنتُ أعلم أنه وقع في حب الإنسانة الخطأ لكني سكتُ لأني أردته أن يتعلم أول درس في حياته.

بوقار بيت الأدب Bouvar

درس ليس كلما نتمناه نحصل عليه والآن أنا من يدفع الثمن بوجع قلب وقلق.

عند محرم. الطائر يكمل كلامه.

- أنا أعرفكَ، وأعرف قصتكَ مع عشترونا تلك الخائنة الشريرة التي اتخذتك لعبة، وعندما وصل الحبيب المرتقب رمتك كما ترمي أيّ دمية من دماها التي تملها.

الشابُ بين ذهول الموقف، وحسرة وألم ينصت بتمعن، وقد أخذت الكلمات تتسلل إلى نفسه، وبدأت نار تشتعل داخل صدره.

- تريد إرجاعها أم الانتقام منها؟ قبل أن تجيب بكلمة ما رأيك بمن يوفر لك فرصة إرجاعها وإن لم يحصل تنتقم؟

- كيف السبيل لذاك، فهي باتت تحب الفارس، ونفسي لا تقبل فكرة جلب أذى لها.

- اصمت أنت ما زلت تحبها، يا غبي، لقد نستك وهي الآن تتمرغ في أحضان نصيبها، تريد أن تَرى؟

قبل الإجابة، نفخ الطائر نفخة في وجه الشاب فبدأ يرى أمامه الحسناء وهي شبه عارية بين أحضان الفارس تتلوى كما الحية.

اشتعلت النار، واضرمت وتعالى لهيبها في الصدر.

صرخة عالية.

- بل الانتقام، الانتقام.

ضحكة شريرة أطلقت.

- أحسنتَ هذا هو الصواب، وأنا سأدلك للباب الذي من خلاله ستصل إلى مبتغاك. هيا انهض اتبعني، فأمامنا طريق شاق.

- أين؟

- الجبل الأسود حيث الساحر المحترم (دحمرير)، عنده علاج دائك، وهو مَن سيعطيك دوائك.

- دحمرير، والجبل الأسود حيث الضبع الأعور ما هذا الانتحار المستعجل؟! لا شكرًا، بل سأعود أدراجي، وألتحف حضن أمي وأبكي.

تحول الطائر إلى حالته الثانية، وصارت غمامة ترعد وعينيها لشرار الغضب تطلق.

- هيا فات أوان التراجع أمضي وانتزع الخوف من قلبك أم أعجبك منظر الغانية وهي تتمرغ في أحضانه؟

استسلم، ولرأسه أطرق منقادًا لا يعرف أ لحقده أم لحبه أم لقدره يسير؟!.

سير بطيء مترنح، والنباح لأذنيه قد نصب، ولنفسه ضد أيّ عدوان جهز.

محرم يتبع الغمامة بانقياد أعمى، وأخذ يتوغل باتجاه الشمال حيث الجبل الأسود الذي كثر عنه الكلام.

قصص مرعبة تناقلتها الأجيال عن المكان، فمن قصة الضبع الأعور الذي تلصق به جميع تهم الإغارة على المواشي والقطعان، رغم أن

جميعها من قبل ضباع عادية أو ذئاب إلى قصص الأرواح الشريرة، والجن.

خطوات تلو خطوات، وصلت الأم مكان المرعى، والظلام اشتد، ولم تعد ترى سوى القليل من الأمتار.

نباح يشم أثر سيده، فيزمجر بقوة، ثم يتحرك للأمام خطوات، ويعود مخرجًا صوت الكلب عندما يحس بخوف وكأنه يقول لسيدته: "هيا بنا نعود أدراجنا ".

المرأة نهرت حارسها، وأمرته بالتقدم، فالقلب يدق بعنف، والخوف على وحيدها تملك النفس.

الشاب وصل قدم الجبل، فتسربت إلى روحه قشعريرة عجيبة وكأنها سكاكين تغرس، ومخالب تنتزع الجلد، وأنياب تقطع. استمر في التقدم، ومع أول خطواته صعودًا بدأ يسمع الأصوات.

ضحكات، بكاء، عواء، وصراخ مع أهات شهوات، وأنات ألم.

صوت حمار ينهق، وذئب يعوي، نهام بوم هنا، ونباح كلب هناك.

مع التقدم بدأت رؤيا لأشباح غريبة الأشكال حمراء العيون، ثم أخذ يحس بأنفاس حارة تلفح وجهه، وكلمات غريبة تطرق أذنيه لم يعرف معناها، لكن إحساسه كان يقول له إنها تحذير له وتنبيه، وأمر بالعودة أدراجه.

ضباب كثيف اعترض وسط الطريق، فاختفت الغمامة، صار يسير دون وجهة.

صمتٌ عم المكان ذهب كلّ شيء فقط ضباب بارد جدًا يجمد الدماء في العروق.

أحس أن قدميه لم تعد تطأن أرض، وكأنه يمشي على إسفنج..

حاول الالتفاف، ثم العودة ولم يتمكن، فجسده لا يلتزم بأوامره كلّ شيء فيه خرج عن سيطرته.

"أنت أصبحت ملك غيرك، ودخلت أرض محرمة بملء إرادتك يدفعك حب الانتقام، فلا تراجع، ولا استسلام".. كلمات رنت داخل رأسه.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى انتهى الضباب تمامًا، وبان أمامه طريق رصف بالأحجار وهياكل الأغنام العظمية.. سار فيه بترنح وخوف.

لم تكتمل خطوته العاشرة حتى قفز أمامه الوحش المرعب.

الضبع الأعور بجثته الكبيرة التي بحجم كبش كبير سمين كثير صوف وجسد عضلي مليء بالكدمات والجروح التي تأبى الالتئام.

رائحة نتنة، ومنظر الفك مرعب.

من بين فخذي الشاب سال سائل دافئ، واصطكت الركبتان.

نظر الضبع بعينه الواحدة التي كانت حمراء متقدة، ثم شمه، وابتعد عنه يفسح له الطريق.

انطلق محرم راكضًا، والدم في عروقه يكاد ينفد.

- يال الهول كهف كبير بالتأكيد ساقني الضبع إلى مسكنه حتى يهنأ بوجبته.

لحظة أيها الغبي هذهِ مشاعل عن اليمين والشمال، أظن أني وصلت ضالتي التي سقت إليها.

صوت هاتف مصدره داخل الكهف.

- تفضل أدخل يا محرم هلم أسرع، فأنا أنتظرك.

خطوات هارب من هول إلى هول.

حدث نفسه.

- إنه الساحر بالتأكيد.

ضحكة لها صدى مخيف

- أنا دحمرير الساحر العظيم، هلم إلي.

داخل الكهف المشاعل النارية في كلّ مكان، وصور الحيوانات تملأ الجدران.

وقت قصير، وأصبح في عمق الكهف حيث رفوف الكتب الكبيرة المصنوعة من الجلود وقوارير زجاجية معتمة كثيرة وقفص كبير تنبعث منه رائحة قذرة نتنة تدفع من تتسلل إلى أنفه إلى التقيؤ على الفور.

الهاتف بصوت أكثر وضوح.

- اقترب لا تطيل النظر بما لا يخصك، فتتعب.

يحاول الشاب تتبع مصدر الصوت بأذنه، وعينيه، ثم أخيرًا وقع بصره على ظل كبير مخيف في زاوية الكهف البعيدة حيث مشعل نار كبير.

خطوة، ثم أخر، فأخرى وبدأت الرؤيا تتضح.

كرسي صنع من حجارة، وعظام كبير ضخم تستقر على رأسه جمجمة تيس بقرون طويلة.

بحث عن صاحب الظل بعينيه، فلم يجده مما زاد خوفه خوفًا.

دون مقدمات والمصدر من خلفه.

التفت مسرعًا.

مفاجأة...

الساحر الشرير الذي حكيت عنه الحكايات أمامه دون حاجب، ولا حجاب.

قزم لا يعدو طوله المتر بجسد صبي، ورأس عجوز كبير.

عينان أبيض سوادهما، وفم كبير تساقطت أسنانه.

عاري الجسد لا يضع سوى غطاء على رأسه صغير، والأذن أكبر مما ينبغي والبطن عظيمة عند العانة.

الشاب أراد الضحك، لكنه تمالك نفسه وثبت.

حرك الساحر كفه الأيسر ببطء، فارتفع الشاب عن الأرض، ثم ضم الساحر أصابعه، فبدأ محرم يختنق.

- هذا حتى لا تغتر بالمظاهر يا غبي.

أنزله بعد أن أرخى قبضة يده.

تحرك حتى أخذ مكانه على كرسيه، ثم طلب من الشاب الدنو منه.

حدثه قائلا:

- تريدها أم تريد الانتقام؟

حيرة، وتردد.

يكمل الساحر.

- لا مجال للشك، فيما ترغب؟

أخبرني عما تريد، فوقتي محدود وثمين.

- أريدها.

- اختيار غبي، وغير صائب ستكون لك لليلة افعل بها ما شئت، لكن لا تلمها إن ذهبت لغيرك بعد ذلك، أنت وشطارتك.

انتفض الشاب معترض.

- الانتقام أريد.

ضحكة عالية.

- هذا هو الخيار الأمثل، سأمنحك قوة لا تقهر، وشكلًا مهيبًا ترتجف له الأجساد، وتذوب عند رؤيته الأرواح، وكلّ شيء بثمن.

فرك كفيه ببعض، وهو يبتسم.

- والثمن شيء أزعجك، وأنا سأضحي وأخلصك منه لترتاح.

مستغربًا.

- ما الثمن؟!

ابتسامة عريضة تفوح منها رائحة كريهة.

- قلبك المزعج.

- ماذا؟!! وكيف أعيش دونه؟!!

- لن تحتاجه بعد اليوم، فحياتك ستكون على قلوب غيرك من المخلوقات تحيا بها، وتستمتع.

نبرة حزينة يائسة.

- هو لك.

ضحكة مجلجلة أشبه بمواء هرة.

- هيا بنا نبدأ.

أشار بيده، فتحركت إحدى القوارير الزجاجية من مكانها، واقتربت، ثم تنحى غطائها، وعلى الأرض أمام الشاب استقرت.

إشارة أخرى باليد الأخرى.

تحرك أحد الكتب الكبيرة من على الرف، وفتح وانتشرت صفحاته في المكان تدور حول الشاب.

بيت الأدب

نهض الساحر وبصوته المرعب جلجل.

النار تغادر المشاعل وتشكل سترًا دائريًا حول الشاب.

محرم يحس ببرد شديد، وكأنه ابتلع جبل جليد.

جثى على ركبتيه، والألم يقطع صدره.

بوقار بيت الأدب Bouvar

الساحر يدمدم، ولأصابع كفيه يحرك.

فتح صدر الشاب على مصراعيه، فصرخ صرحة اهتزت لها صخور المكان.

ظهر داخل الصدر، وبان محتواه.

لسان من نار يتسلل إلى قلبه، ويقطفه من مكانه.

الزجاجة تحركت برشاقة لتحتوي القلب الذي استمر بالخفقان، ثم ابتعدت بعيدًا، وكأنها حصلت على أثمن ثمين، وتبعها غطائها، وعلى رفها استقرت، وأخذت ترتجف، وترتجف، فحبيسها يود الفرار ولا مفر، الأمر انتهى، وحسم.

التأمت النار على الشاب، وعلا الصراخ، والنحيب.

لحظات بعدها عادت النار إلى المشاعل، وابتلع الكتاب صفحاته، ثم عاد أدراجه.

جلس الساحر مبتسمًا على كرسيه، ومكان الشاب لا أثر فيه لشيء.

حرك دحمرير إصبعه الأوسط من الكف الأيسر، فبدأت الأرض تهتز، وتتشقق، وأخذت الصدوع بها تكبر، ثم تكبر معلنة عن ولادة جديدة.

قليل من الوقت مر حتى برز الوحش الكاسر أمام الساحر.

عينان حمر، وأنياب متعطشة.

ذئب كبير مهيب الجثة، والمنظر مرعب تقشعر له الجلود، وتغيب خوفًا من رؤيته النفوس.

الساحر يتكلم.

- الآن أنتَ أقوى من الضبع الأعور، وأكثر هيبة من الأسد، اذهب، وانتقم لنفسك.. كلما أحسست بجوع عليك بقلوب المخلوقات، فهي غذاؤك، والذكريات التي بداخلها عذابك، فكل قلب تأكله تتسلل إليك ذكرياته لتجلدك وتدفعك للأمام في مسيرة الانتقام.

ضحكة خبيثة.

- إن كنتَ للخلاص تريد من حالك الجديد عليك بقلب الغانية عشترونا، كله، وستعود سيرتك الأولى.

صرخ الوحش بصوت مخيف شبيه العواء الممزوج بزئير، ثم انطلق بسرعة البرق.

الساحر، وهو يجلس مزهوًا بنفسه فرحًا بما حقق، دخلت عليه البومة، وله كلمت.

- هل أنتَ راضٍ عني يا سيدي؟

- كل الرضا.

ضحكة عالية.

- تريدين الخلاص من لعنتك؟

- لا، شكرًا لأنك ستطلب عشترونا ولن أفعل، ولولا تأكدي من سفرها مع الأمير لما جلبتُ لك ذلك المغفل، فقد كانت واعية وسافرت مع حبيبها دون الرجوع لأهلها المدعين.

ضحكة أعلى.

- نهايتك اقتربت، وستكون بعد شهور.

الوحش يجري، ويجري وعند قدم الجبل شاهد الضبع الأعور، وهو يقوم بقضم رأس جثة بشرية.

بوقار بيت الأدب Bouvar

صرخ بقوة، فهرب الضبع على الفور بعيدًا.

تقدم الذئب الكبير إلى الجثة بهدوء.

دون مقدمات على الصدر انقض، وللقلب اقتلع، فمضغ، ثم ابتلع.

كشرارة محرقة موجعة تسربت الذكريات.

رأى طفلًا صغيرًا بين أحضان امرأة، ثم صبي ففتى، فشاب بعضلات مفتولة، فأغنام وناي، وامرأة تغزل الصوف، وتصنع الجبن.

صرخ.. صرخ.. صرخ...

*** ***

الفصل الأخير

ننتو

الساحر ضحكاته تملأ المكان، وهو يستقبل الغمامة التي دخلت عليه لتوها.

دحمرير يتكلم.

- أهلًا وسهلًا عزيزتي ما هذا الغياب عنا؛ تسع أشهر، وأنت لا تسألي؟ ما هذا الجحود يا بنت؟

استمر الضحك.

سر من رأى تجيب بتلعثم.

- أنا استأذنتك أن تسمح لي بأن أهيم سائحة بين البلدان، وحضرتك وافقت.

ارتفع صوت الضحك أكثر، ثم قال:

- بل كنتِ عندها تقضين صباحك تتأملين وجهها، وهي خادرة في فراشها، ثم تبيتين ليلك تسمرين بسماع سمرها مع زوجها الأبله.

أود أخبارك مفاجأة سرتني كثيرًا.

نظر إليها بعين حادة، ثم أكمل قائلًا:

- إنها حملت وجنينها اكتمل في أحشائها كالبشر.

ضحك مبالغ فيها.

مستغربة الغمامة تسأل.

- ما الذي يضحك سيدي؟!

- أضحك على مصيرك الذي ينتظرك، فمع أول صرخة للمولودة تنتهي رحلتك في هذا العالم، وتتحولين إلى لا شيء.

استمر الضحك.

بوقار بيت الأدب

الغمامة ترسم ملامح الارتياح، والفرح عليها.

- حقًا؟! هذا ما كنتُ أنتظر بدل أن أقضي سنوات طويلة على هيأتي هذهِ.

شكرًا لك سيدي على كرمك.

الوجه الضاحك تبدلت ملامحه، ثم صرخ بها.

- تبًا لك ما أقذرك، وأحقرك؛ اذهبي هيا نادي لي محرم عندي له مفاجأة هو الآخر.

صوت الغمامة ارتعش، ونبرة الارتياح والوثوق ترنحت، وتحولت لنبرة خوف من مكيدة جديدة.

- أرجوك بحق ما بيننا لا ترسله إليها.

أرجوك هي قررت عيش الحياة كبشرية ونسيان ماضي جنسها.

زجرها بعنف.

- ما بيني وبينك لا يتعدى أن يكون ما بين سيد وعبد، فإياك وتكرار هذهِ الكلمات على مسامعي.

محاولة استعطاف بائسة.

- لكن سيدي أرجوك.

- صهٍ.

نظرة حادة.

- لا تقلقي عليها أنا صرفت النظر عنها لكني سوف أطارد نسلها.

ضحكة بطعم الحقد والألم.

انصرفت تبحث عن بغيتها، وهي قلقة من مكيدة تحاك وتنسج داخل رأس الساحر.

بعد القليل من البحث.

- ها هو في مكانه المعتاد يعوي كعادته كعجوز حزينة فقدت أسنانها، ويذرف دموعه الغزيرة كأم فقدت وحيدها.

كلام سريع، وإخبار بالطلب، فخفض الوحش رأسه، وبدأ يسير ببطء متوجهًا إلى الجبل.

الشمس ودعت السماء، ومحرم في طريقه إلى دحمرير.

الغمامة عادت سريعًا إلى سيدها لتخبره بقدوم المطلوب.

في الكهف الضبع متواجد يجلس عند قدم كرسي الساحر بكلّ هدوء وسكينة.

الغمامة تفاجأت لوجوده، لكنها عرفت القصد والمغزى الذي يريده دحمرير، وأن الأمر جد خطير.

بوقار بيت الأدب Bouvar

الضبع حينما رآها نهض، وتحرك مبتعدًا، كأنه لا يريد لعينه الواحدة أن تبصر تلك الغمامة.

دحمرير يستلذ بالمنظر، ويبتسم، ثم يسأل.

- هل وجدتِ ذلك التعيس البكاء؟

- في طريقه إليك سيدي.

صمت، وأشاح بوجهه عنها، وادعى أنه يتأمل شيئًا ما.

الغمامة تنطلق إلى الضبع.

- عزيزي شامسي كم مرة يتوجب عليّ الاعتذار حتى أعنذر؟

أشاح الوحش بوجهه عنها.

تستمر بالكلام.

- أريد إخبارك أمر سيبهجك.

بوقار بيت الأدب

ابنتنا توشك أن تضع مولودًا.

ألا يفرحك هذا.

ثمرة حبنا العميق ستكون أمًا.

نظر إليها، ثم أطلق (خشامه) بقوة، كأنه يقول لها: أيّ حب الذي تدعين أم نسيت خيانتك، وارتمائك بين أحضان ذلك السلطان السمين؟

حالي الذي أنا عليه الآن هو صنيعة خيانتك؛ اتركي كلامك المعسول جانبًا لم يعد يجدي نفعًا.

قبل أن تستمر في كلامها دخل الذئب الضخم إلى الكهف ليقاطع ذلك الموقف.

الساحر يبتهج بقدومه، ويقول:

- ها قد جاء بطلي المفضل.

الضبع عندما رأى محرم اقشعر بدنه، وأدخل ذيله بين فخذيه، وبدأ يسيل لعابه.

الساحر ينادي:

- تعالي إلى هنا، وشاهدي ما سيحصل.

التفت إلى الذئب، وقال له:

- انظر إلى هذا الخائن يا عزيزي هو من قتل أمك، وهو كذلك أبو حبيبتك التي خانت.

هو لك افعل ما تريد معه.

صرخ الذئب حتى سال الدم من فمه، وانتصب شعر ظهره.

تقدم بخطى بطيئة واثقة متجه إلى عدوه، وهو يزمجر، ويصك بأسنانه حتى أن الغمامة سمعت الأسنان وهي تصدر ذلك الصوت المرعب.

الضبع يتراجع حتى التصقت مؤخرته بإحدى جدران الكهف، ثم هبط بجسده كاملًا على الأرض كأنه يطلب السماح، ويظهر الخضوع، والخنوع، لكن الذئب لم يتوقف، واستمر بالتقدم.

الغمامة تكلم سيدها.

- أرجوك سيدي أمره بتركه.

انظر إليه كيف بات خانعًا خاضعًا ذليلًا؛ أمره أن يتركه.

نظر إليها دحمرير، ثم وجه سؤالًا لها:

- أتحبيه؟ أخبريني بالحقيقة.

- لا بل أشفق عليه؛ لأني أنا من أوصله لهذا الحال كما أنه أبو البنت.

بانفعال، وانزعاج.

- أو لمثلكم قلوب تحس أو ضمائر تشفق؛ جنسك يجب أن يمحى من الوجود، وأنتم تستحقون ذلك لأن شهواتكم وأطماعكم أعمت بصائركم؛ تعرفين أن الخاسر في هذا كله مَن؟

لم تجبه وبقية صامتة.

أكمل الساحر كلامه.

- اثنان محرم، وآخر.. أصمتي ودعي الوحش ينهي عملًا كان يجب إنجازه منذ زمن.

بينما أنهى الساحر كلامه صار الذئب عند الضبع ينتصب فوقه حيث أظهر الأخير ذلًا مبالغًا فيه، وبان ضئيلًا رغم حجمه الذي يكبر الذئب بنسبة لا بأس بها.

الذئب توقف عن الزمجرة فجأة، وأخذت أنفاسه تهدئ، كأنه عدل عن الانتقام، ورأى في ذلك الضبع ندًا غير كفئ.

الضبع مستمر في التخضع للذئب، فأدار الأخير ظهره للأول، وهنا غير دحمرير جلسته، وزاد من انتباهه.

دون مقدمات انقض الضبع على ظهر الذئب، وغرس أسنانه القوية، وحاول إحكام انقضاضه من خلال غرس مخالبه أيضًا.

صرخ الذئب متألمًا، فأجابه الساحر موبخًا.

- غبي، وستبقى كذلك..

أيّ مخلوق أنت لتأمن لضبع.

ذق صنيعة سذاجتك.

الغمامة أرادت تشجيع الضبع غير أنها عدلت عن الفكرة خوفًا من سيدها، فاكتفت بالمراقبة صامتة.

الذئب يحاول تضيع فرصة إحكام فك الضبع على ظهره، فبدأ بحركات سريعة يحاول من خلالها الإفلات، ثم أخذ يركض في المكان حتى صادفته صخرة، فأسرع إليها وبكلّ ما أوتي من قوة رطم طرفه بها مما جعل المتمسك بظهره يرتطم بكامل جسمه فخلص الذئب نفسه.

ظهر الوحش للدم نازف.

نهض الضبع لينقض مجددًا، والهدف هو الهدف مكان النزف.

الذئب يناور، ويقوم بالقفز بمنتهى الرشاقة، ثم لاحظ الرفوف التي تستقر عليها القوارير، والكتب، فأراد انتقامًا مزدوجًا.

قفزة على القفص الكبير، وأخرى هدفها الوصول بالقافز إلى مكان القوارير الزجاجية.

الضبع لم أيضًا عقب خلف الذئب مسرعًا هدفه اللحاق به.

الزجاجات تتهاوى على الأرض، ومع ارتطامها، وتناثرها شظايا تتناثر القلوب، وتتحطم كأنها أرق مما كانت فيه محفوظة.

الساحر أطلق الضحكات تلو الضحكات، ثم ردد قائلًا:

- يا لك من غبي يا محرم، إن الزجاجات كانت بما فيها للزينة فقط؛ قلبك وباقي القلوب قد تغذى على أرواحها سيدي الكبير ومعلمي القدير (أبا مرة).

خر الساحر ساجدًا.

المطاردة بين الوحشين مستمرة، والمكان صار عبارة عن فوضى كبيرة، ثم تحول الأمر أخيرًا لأشبه بمواجهة.

الضبع ظهر عليه التعب، أما الذئب ورغم جراحه الغائرة إلا أنه هو المسيطر.

الساحر يعيد سجوده مرة تلو مرة، وبعد أن استقر على كرسيه التفت إلى الغمامة، وقال:

- أنت أكثر غباء من ذلك الغبي.

نظرت إليه مستغربة.

أكمل كلامه.

- أنت تعلمين أن خلاصك هو موتي؛ أليس كذلك؟

أجابت، والصوت بدى عليه الحزن.

- أجل، هو كذلك.

- لمَ لم تحصلي على خلاصك حينما أتيحت لك الفرصة الآن؟!

جوابها الصمت.

تكلم دحمرير وبصوته نبرة تأنيب.

- ما بيني وبينك منعك؛ أليس كذلك؟

الجواب الصمت كذلك.

صرخ بوجهها قائلًا:

- غبية، وستبقين غبية.

هذا لن يشفع لك، ولن يثنيني عما أرومه.

سألاحق نسل ابنتك ما دامتُ أتنفس.

الحوار دار وسط صراع بين الوحشين تميز بخجل الهجمات وضعف الانقضاض من الطرفين.

أخيرًا اتخذ الذئب قراره وهجم بكلّ ما أوتي من عزم.

الفك يقبض على الرقبة، ويهبط الوحشين من أعلى رف الكتب ليستقرا على الأرض.

الأنياب مع باقي الأسنان غرست حتى نهايتها، ثم بقوة أقتلع حنجرة عدوه.

رمى ما اقتلع بعيدًا عنه لتصل وهي تترنح على الأرض إلى مقربة من كرسي الساحر.

انتصب دحمرير واقفًا، وأخذ يصفق بكلتا يديه، وهو يردد.

- أحسنتَ بني، أحسنتَ؛ هذا ما كنتُ أنتظره منك.

الضبع يحتضر، والذئب انقض على صدره يبحث عن قلبه.

صرخ به الساحر قائلًا:- رغم أنك أحسنت، لكنك ستبقى غبي؛ إن حاله كحالك، فمن أين له بقلب أيها الأبله!

الغمامة تنطلق مسرعة إلى الضبع الذي انتهى أمره، والحزن باد عليها بشدة، وقبل أن تصله عاد شامشي إلى أصل خلقته، ثم احترق متحولًا لكومة فحم، وانتشرت رائحة الاحتراق في المكان.

الساحر يوجه كلامه للغمامة قائلًا:

- الآن جاء دور ابنتك أيتها الحقيرة سأكوي قلبها بعزيز عليها وأفجعها بذلك الزوج الذي تمثل حبه.

الضحكات تملأ المكان.

بوقار بيت الأدب Bouvar

الغمامة تقاطعه.

- لكنك قلت أنك لن تؤذيها وستطارد نسلها فحسب؟

زاد في ضحكه، ثم قال:- هي نعم، لكن الأبله بعلها لا، ثم أنا ساحر، وشعار السحرة الكذب والخداع، وحتى إن أردت مد يد الأذى إليها من سيمنعني؟

أنتِ أيتها الحقيرة؟!

الذئب منتصب لا يحرك ساكنًا، ولا يفعل شيئًا رغم جراحه الكثيرة.

الغمامة تحاول الانطلاق بأقصى سرعتها لتحذير ابنتها.

حرك الساحر يده، كأنه يقبض على شيء بقبضته، فتجمدت الغمامة مكانها، ولم تستطع الحراك.

دحمرير وهو مبتسم يكلمها.

بوقار بيت الأدب Bouvar

- سأتركك تذهبين ولابنتك ترين، وعلى نهايتك تحصلين، لكن ليس وأنت على هيأتك هذهِ، لن تتمكن بعد اللحظة من التشكل بشكلين.

حركة باليد، فتحولت إلى بومة.

الساحر يكمل كلامه.

- الآن انطلقي، وسأبقي الزمن، والموت.

ضحكات تتلوها ضحكات.

البومة لم تضيع لحظة وطارت مسرعة.

نظر الساحر إلى الذئب المنتصب، ثم نزل من على كرسيه، وتوجه إليه، وبدأ يكلمه بهدوء، وقد بان على صوته الحزن.

- أتعرف عزيزي محرم أني أنا مثلك.

نعم، مثلك لا تستغرب، قد طعن قلبي طعنة عميقة لم تشفَ حتى اليوم.

مع تقدم الساحر ناحية الذئب بدأ الأخير بالتراجع إلى الخلف، وأدخل ذيله بين فخذيه، وطأطأ رأسه، وانكسرت عينيه.

ضحك دحمرير بصوت عال، ثم قال:

- لستَ أنت ضبع، ولا أنا ذئب.

سأكمل لك حكايتي؛ أنا متأكد أنها ستروق لك، فأنت تعشق البؤس.

توقف الذئب عن التراجع، فوضع الساحر يده على رأس الأخير الذي بدى حملًا وديعًا رغم الأصوات المرعبة التي يخرجها مع زفراته.

الساحر يكمل كلامه قائلًا:

إليك القصة...

عندما كنتُ في الثامنة عشر من عمري كنتُ أشتغل بصيد السمك، وكنت ماهر فيه.

كنتُ يتيم الأبوين، وأعيش مع أخي الأكبر إيا وزوجته.

في أحد الأيام، وقبل غروب الشمس بقليل، وأثناء تجذيفي عائدًا إلى الشاطئ ظهرت لي امرأة فائقة الحسن، والجمال لم أرَ مثلها في حياتي؛ ظهرت من الماء فامتزج إحساس الذهول لروعة المنظر مع الخوف، والفزع من أن تكون من بنات الجن اللاتي يغوين الإنس.

جذفت بقوة محاولًا الوصول إلى الضفة بأقصى سرعة، وفعلًا نجحتُ، والمرأة لم تفعل شيئًا سوى أنها استمرت تراقبني حتى

وصلتُ إلى الضفة، ثم أخذت بالاقتراب واتضحت لي تفاصيل جسمها بالكامل.

كانت عارية تمامًا وجمال جسمها لا يوصف؛ أروع من الرائع.

كلمتني مباشرة، فازداد جمالها جمالًا بذلك الصوت الذي يشبه تغريد البلابل، نادتني باسمي، فتسربت رنات صوتها إلى شغاف قلبي، وتمكنت نظراتها من محاصرة روحي.

أخبرتني أن اسمها (ثرحبا)، سيدة البحيرة.

بعد قضائنا أوقاتًا ممتعة مع بعض تلك الليلة تكررت زياراتها لي كلّ يوم حتى أمضينا أربع عشر يومًا ونحنُ على هذا الحال، وفي كلّ يوم تأتي لي بهدية من أعماق تلك البحيرة.

لا أخفيك سرًا يا عزيزي الحزين، أني بحبها همت.

بوقار بيت الأدب Bouvar

وفي اليوم الخامس عشر كنتُ أنتظرها كالعادة في مكاننا المعتاد بين القصب، والحشائش المرتفعة.

جاءت لكن مجيئها مختلف هذهِ المرة، فمعها رفقة.

دحمرير يقاطع نفسه بضحكة تشبه البكاء، ثم يكمل بعدها.

- لا يذهب تفكيرك لبعيد يا خبيث، لم تأتِ بإناث أخريات، بل جاءت ومعها رجل.

كان عظيم الجثة مفتول العضلات.

قاطع نفسه مرة أخرى موجهًا كلماته للمنصت بإصغاء.

- أنا أيضًا كنتُ شابًا وسيمًا مفتولَ العضلات قبل أن أتحول لما تراني الآن، فهذا الحال هو جزء من ثمن كان واجب دفعه لصاحبه حتى أمتلك مفاتيح القوة، والمكر، والدهاء.

عودة لقصة الساحر التي يروي.

- دون مقدمات قدمته لي، وأخبرتني أنه زوجها، وأنها كانت تعاشرني لأجل الإخصاب لأن زوجها عقيم وقالت لي أنها، وزوجها آخر أبناء جنسهما، ثم شكرني زوجها، وقدم لي كيسًا كبيرًا مليئًا بالذهب، والمجوهرات..

أما أنا، فقد بقيت مصدومًا، وبدأتُ أحس أن روحي تنتزع مني؛ ثرحبا وزوجها لم يطيلا الكلام، وانصرفا على الفور.

تنهد دحمرير وربت على رأس الذئب بحنان أكبر، ثم عاد ليكمل ما بدأ.

- لم أتمالك نفسي، وانطلقت هائمًا في الأرض، وصرت كالمجنون أسير دون هدف حتى قادني قدري إلى هذا المكان الذي وجدتُ فيه

ما ترى من كتب، ولأني أجيد القراءة بدأت أطالعها، وكلما أنهيت أحدها شيء يدفعني لأتناول الآخر، وفي إحدى الليالي زارني معلمي الكبير (ستان)، العظيم أبو مرة وكانت تلك المرة الأولى التي أتشرف بلقائه، ثم جرى الاتفاق بيننا، وأعانني على امتلاك قوة السحر لأنفذ انتقامي.

بينما الساحر يخبر ويبوح وصلت البومة إلى شرفة غرفة ابنتها، ومع وصولها شاهدت بعينيها وصول الطفلة إلى العالم، وسمعت صراخها، فتبخرت على فورها.

نظر الساحر إلى محرم وقال:

- الغمامة البومة سر من رأى ابنتي، وعشترونا الحقيرة حفيدتي، لذا أريدك تنفيذ أمري و...

قبل أن يكمل كلامه انقض الوحش بكلّ ما تبقى له من قوته، وانتزع قلب الساحر بحركة فائقة السرعة والتهمه دفعة واحده.

الساحر أطلق آخر كلماته.

- تبًا لك ستبقى غبي حتى آخر لحظاتك.

تهاوى الجسد ساقطًا، ومع استقرار الجثة على الأرض دوى صوت صراخ في المكان، ثم بدأ الكهف ينهار.

ذكريات الساحر تتسرب إلى الذئب، وجثة الساحر تحولت إلى زيت أسود تسرب بين الشقوق في الأرض.

الصور الغريبة المخيفة تهاجم ذاكرة الذئب، وأكثر ما أثر فيه حتى فجر الدم من أذنيه هي صورة المخلوق المقرف المريع ستان اللعين

بعينيه الحمر وفمه متعدد الالسن مع رأس كبير أسود ينتصب أعلاه قرنان صغيران.

استجمع الوحش وعيه، وانطلق فارًا بنفسه مبتعدًا عن المكان قاصدًا مكانه المعتاد.

الأمير يدخل على زوجته عشترونا وينحني، ثم يرسم قبلة على جبينها، فيأخذ طفلته بين ذراعيه ويشمها، ويقول:

- سأسميها ننتو اسم جميل أصيل، ما رأيك؟

الصوت متعب من آلام الولادة، والابتسامة الصادقة الأولى له.

- كما تحب يا حبيبي هي ابنتك.

- بل ابنتنا يا مهجة الروح.

بعد تخبط، وسقوط، وترنح وصل الذئب أخيرًا إلى هدفه، ومع وصوله بدأت أشعة الشمس تغزو المكان.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم أطلق عوائه المعروف الممزوج بزئير الأسود، ومع العواء صوت تكسر الأضلاع صدح.

قرون طويلة مرت...

الساعة العاشرة من صباح، يوم صيفي جميل.

سيارة حمراء اللون فاخرة الماركة ألمانية المنشأ تسير بهدوء، وسلاسة داخل طريق ريفي هادئ تتناثر على جانبيه المناظر الخلابة للطبيعة.

السائق رجل في أواسط الثلاثين من العمر، وبجواره زوجته التي بدا على وجهها أنها جاءت مجبرة معه لزيارة عمته التي تقطن الريف، وفي المقعد الخلفي يستقر طفل يبلغ من العمر عام في مقعد

بوقار بيت الأدب Bouvar

مخصص للأطفال مثبت بقوة وإحكام، والطفل قد نام مطمئنًا، والابتسامة على وجهه مرتسمة.

في الطريق برز تل صغير.

نظر الرجل إلى أعلى التل، وابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال داخل نفسه:

- كم أحب ذلك المكان؛ أشم فيه ذكريات الطفولة.

دقائق انقضت ليست بالطويلة، ثم ظهر على جانب الطريق منزل فخم ذو طراز قديم لم تمتد إليه يد التغير أو التغيير، ولم يجرؤ أحد ممن سكنوه على التطاول والعبث بوجهه الفخم.

بصوت مبتهج كلم زوجته.

- الحمد لله وصلنا.

إنزعاج باد على نبرة الصوت، وابتسامة كاذبة رسمت على الوجه.

- الحمد لله؛ سنرى الغالية العمة (عالية)، أخيرًا إني مشتاقة لها كثيرًا.

توقفت السيارة على بعد لا بأس به، فالعمة منعت أيّ مركبة أن تقترب وتطأ بإطاراتها الحجارة التي رصفت مكونة الطريق المؤدية إلى المدخل الرئيسي إلى الداخل.

امرأة عجوز في الثمانين من العمر تفتح الباب بصعوبة بعد طرقه طرقًا طويلًا، ثم ارتسمت ابتسامة على الوجه المستقبل عندما أشرق عليها وجه ابن أخيها المبتسم لينهال الأخير مقبلًا محتضنًا، ثم دور النفاق من الزوجة التي لم تعرها العمة الكثير من الاهتمام كالعادة، وركزت على الطفل الذي أخذ يضحك بشدة حينما شاهد

صاحبة الوجه المجعد، وأمه كيف تبادلتا الكذب والنفاق، وكأن لسان حاله يقول: عالم غريب هذا الذي جئت إليه! نفاق حتى في أجمل الأشياء التي وهبت لنا نحنُ البشر؛ هي ابتسامة لمَ لا تجعلوها من القلب؟! وأنت يا أمي، ما الذي سينقص منك إن فتحتي أبواب قلبك لتلك المسنة؟! وأنت يا سيدتي لم يبقَ لديك الوقت الكثير حتى تهدريه؛ أرجوكِ لا تتشبثي بها كثيرًا، فلا قيمة فعلية لها.

بوقار
بيت الأدب

دخل الجميع إلى الداخل وبدأ ابن الأخ بالسؤال عن حال العمة، وكذلك عن حفيدتها الشابة الثلاثينية.

- عمتي أين مها لم أرها؟ أتمنى ألا تكون قد سافرت كعادتها.

بوقار Bouvar بيت الأدب

الزوجة انزعجت من السؤال، فقلبها طالما أخبرها بميل زوجها لتلك السمراء ذات الأنف الطويل.

العمة تبتسم ابتسامة مطعمة بالخبث، واللؤم.

- لقد ذهبت إلى البلدة، وستعود عما قريب؛ ذهبت لاقتناء كتاب سمعت عنه، وكانت تتابع أخباره بشغف كمن تتابع أخبار حبيب لها.

أطلقت العجوز ضحكة، ثم أكملت.

- منذ طلاقها من السكير اللعين، وهي لا هم لها سوى الاعتناء بالحديقة الخلفية، والقراءة.

عينا الرجل تقدح شرار الغبطة.

- القراءة حياة يا عمتي، وأنا أعشقها أيضًا، لكن ماذا أفعل لمشاغل الدنيا التي تسرق منا أجمل اللحظات.

الزوجة تتدخل، والانزعاج بادٍ على صوتها:

- انشغالك يا عزيزي، جعلك ما أنتَ عليه اليوم؛ رجل أعمال ناجح تدير شركة عالمية أما القراءة، ومطالعة الكتب والروايات، فهذا عمل مَن لا عمل له.

الزوج:

- مال بلا علم وإطلاع أشبه بوضع كمية كبيرة من العلف لحيوان مشته يأكل حتى يشبع، ثم يدوس، ويسحق الباقي الكثير ويملأه فضلات، وعندما يجوع يعود يقلب فيه ليأكله مجددًا، أما العلم،

فهو فاكهة المتفقهين التي توضع للطاعمين في إناء من خزف صيني، وسط حديقة من أزهار الياسمين.

لم تعلق الزوجة على ما قال أبو ابنها.

الشاب ينهض، فتعترضه العمة:

- إلى أين؟

ضحكة.

- إلى المكان الذي تعودتُ الذهاب إليه؛ سأعود عندما تعود مها، فإني في شوق لإزعاجها مجددًا، وأخذ كتاب منها لمطالعته.

الضحكات المتبادلة بين الثلاثة.. ابن الأخ، والعمة، والطفل الذي بدى عليه أنه يضحك على الثلاثة، كأنه يقول لهم: عجوز تريد إغاظة امرأة، وامرأة تحاول الظهور على أنها من علية القوم، ورجل

قلبه يخفق لمقتنية الكتب، ويده في جيب أبو زوجته محدث الثراء، تبًا لكم يا بشر.

السيارة تتوقف ليس بقريب من التل.

ترجل الرجل، وبخطوات متلهفة مشتاقة قطع الأمتار صعودًا.

توقف أمام قطعة الحجر كبيرة الحجم.

كلمات تخرج من الفم بلهفة.

- كيف حالك صديق الطفولة؟

كيف حالك (محرم الحزين)، اشتقت للجلوس بجوارك، والفضفضة لك.

أنت حزين دائمًا أيها الذئب؛ تعرف كلما أرى فمك هذا أحاول تصور كيف أطلقت عوائك الأخير، وما مدى الألم الذي كنتَ

تحس، وكلما أتفقد جسدك، وألاحظ هذه الجروح الغائرة رغم تحجرها هي واضحة؛ أحاول تخيل مع أيّ مخلوق مرعب خضت معركتك الأخيرة.

صوت سعال يقاطع الكلمات من جسد أتعبته السنين، وحناه فقد الأحبة.

الرجل المتكلم يرتعب، ويرتاع، ثم لا إراديًا يسأل بوتيرة سريعة مستعجلة.

- مَن ؟! مَن؟!

الساعل يجيب ضاحكًا.

- لا ترتاع يا بني..

إنس، إنس لستُ جنًا؛ أنا مثلك تمامًا آتي إلى هنا كلّ حين أخبر صديقي هذا بهمومي، وأبث له شيئًا من أحزاني.

إشارة باليد.

- تعال شاركني الجلوس يبدو أنك غريب عن هذهِ الأراضي؟

خطوات اقترب بها ملبيًا الدعوة.

- غريب قريب يا سيدي.

تنهد.

- كلنا غرباء أتيناه غرباء، وسنغادرها غرباء؛ مجنون كلّ مَن يعتقد أنه ينتمي إليها، فهي لا تحب أحدًا؛ حقيرة جدًا تعطي ظهرها لمن يقبل عليها، وتجافي مَن يطلب ودها، وتفتح ذراعيها لطاعنها، وتقبل لاعنها.. اجلس.

استقر الظهران متكئين على الذئب الحجري.

المسن ابتسم بوجه الشاب، ثم قال:

- يبدو أن لك معرفة بأمر صاحبنا هذا؟

- نعم يا سيدي.

قاطعه.

- نادني بعمي أو بأبي حارث إنه أحب اسم على قلبي.

- حسنًا.

- أخبرني ما مدى معرفتك بقصته؟

- لقد سمعتها من جدتي التي سمعتها من جدتها التي أخبرتها بها أمها.. قصة حزينة كلها بؤس وشقاء.

اليد العجوز تربت على الظهر الشاب.

- الدنيا يا بني دار أحزان، وأنكاد؛ الأفراح فيها بالإيمان أنها لن تدوم طويلًا، وستنتهي، وبعد النهاية هناك بداية جميلة في مكان آخر لمن قدر وغفر، وتجاوز وعفا، وتسامح وأحب؛ المكان الذي أحدثك عنه لا حزن فيه أو يأس، وهذا يكفنا عزاء ألا نعير الدنيا اهتمام.

*** ***

بوقار
بيت الأدب

بوقار بيت الأدب Bouvar